المقتطف

الجزء الخامس من المجلد الخامس والتسعين

١ ديسمبر سنة ١٩٣٩ — ٢٠ شوال سنة ١٣٥٨

اكتشاف السنة

في تركيب الذرة وعملها

هل الانشطار الذري اهمُّ من الحرب ؟

روى الدكتور كارل كمبتن مدير معهد ماساشوستس التكنولوجي انهُ عُهد اليه في خلال الحرب العالمية الماضية بأن يعرض على خبراء الانكليز والاميركيين جهازاً كان الفرنسيون قد اخترعوهُ لتبين مواقع الغواصات . وكان ارنست رذرفورد — اكبر علماء الذرة في هذا العصر وقد توفي في ١٩٣٧ — احد خبراء الانكليز . فعند ما حان ميعاد الاجتماع تلقى الخبير الانكليزي الآخر — الاستاذ بمسد — بطاقة من رذرفورد يعتذر فيها عن تأخره بوجوب بقائه في معمله قليلاً لانجاز تجارب كان قد بدأها وان هناك ما يحملهُ على الظن انهُ تمكن من شطر نواة الايدروجين بها . قال : واذا صحَّ ذلك فهذا اهمُّ من الحرب . ولكنهُ وهو العالم الحذر طلب ألاَّ يذاع تباً هذه التجارب حتى تأيد تائجها . وقد كان حذرهُ في محلّهِ لان ما اتركهُ رذرفورد في تلك التجارب لم يكن شطر نواة الايدروجين بل قذف البروتونات من ذرات التروجين والالومنيوم وغيرها من العناصر الخفيفة فكان بذلك اول من ادرك الطريقة لتحويل العناصر بعضها الى بعض

وقد ذهب رذرفورد الى لقاء ربهِ سنة ١٩٣٧ وشطر نواة ذرَّة من الذرَّات لم يتم . ونحن اولاء في اهوال حرب عالمية اخرى ، ولكن اباء مباحث العلماء لا ينقطع سيلها ، وبينها بأ

شطر ذرّته ليست ذرة الايدروجين اخف العناصر ولكنها ذرّة الاورانيوم اثقلها. فاذا صحّ ما يُبنى على هذا الانشطار من الآراء، فهذا النبأ على قول وذرفورد قنبلة اهم من الحرب »

— ١ —

في اواخر يناير الماضي (٢٦ يناير ١٩٣٩) عقد في مدينة وشنطن عاصمة الولايات المتحدة الاميركية مؤتمر وشنطن الخامس للطبيعة النظرية. وفي جلسة الافتتاح اعلن العلامتان نيلز بور الدنماركي، واريكو فرمي الايطالي، أنباء تجارب استوقفت الانظار واسترعت اهتمام العلماء المؤتمرين. وملخص هذه الانباء ان عالماً المانيًّا يدعى اوتو هان Hahn كان قد فاز قبل بضعة اسابيع بنتائج غريبة في خلال قيامه بتجارب طبيعية مادية. ذلك بأنهُ اشترك مع زميله شتراسمان Strassmann في اطلاق النوترونات على ذرات عنصر الاورانيوم جرياً على طريقة اريكو فرمي Fermi الايطالي ثم كشف المخلّفات الناشئة عن اصطدام النوترونات بالذرات

ولو انهما وجدا راديوماً في هذه المخلفات لما دهشا لأن الراديوم قريب الصلة بالاورانيوم من حيث الوزن والشحنة الكهربائية وهو احد جيرانه في الجدول الكيميائي الدوري، فتحويل الاورانيوم الى عنصر آخر باطلاق القذائف عليه ليس مستغرباً وتحوُّل بعض ذرات الاورانيوم الى ذرات راديوم ليس مما يبعث على الدهش

ولكن الشيء المستغرب بل العجيب في نتائج هذه التجارب ان هان وشتراسمان وجدا في مخلفات الاصطدام آثار عنصر الباريوم، وهو بعيد عن الاورانيوم في الجدول الدوري ووزنه الذري نصف وزن الاورانيوم الذري تقريباً، فاذا صح هذا — والكواشف الكيميائية والطيفية أثبتت ان الباريوم موجود في المخلفات — فمعناه ان قذائف النوترونات لم تفصل في انطلاقها شظايا صغيرة من نواة الاورانيوم بل معناه انها تمكنت من قلق الذرة فلقتين في صدمة عنيفة

فكان وقع هذا النبأ في اذهان العلماء المؤتمرين، كوقع صيحة «الذهب» في اسماع الباحثين عنهُ. وما اقبل المؤتمر على الانفضاض حتى جاءت انباء المختبرات تترى مؤيدة للنتائج التي وصل اليها هان وشتراسمان. ذلك ان الدكتور فرش Frisch والباحثة ليز مينتر Lise Meitner أثبتا في بحث اجرياه في مختبرها بكوبنهاغن عاصمة الدنمارك قبل عشرة ايام صحة ما قاله هان وشتراسمان. وكان اريكو فرمي قد اجرى تجربة من هذا القبيل في جامعة كولومبيا قبل التئام المؤتمر بيوم واحد. وفي اليوم الثامن والعشرين من شهر يناير — اي يوم انفضاض المؤتمر — جاءت الانباء من معهد كرنيجي بوشنطن وجامعة جونز هبكنز وجامعة كاليفورنيا وكانت جميعها مؤيدة لانباء برلين

فأطلق في الحال وصف «الانشطار الذري» على هذه الظاهرة الجديدة في علم الطبيعة الذرية، وقامت دراستها بعناية فريق كبير من كبار علماء الطبيعة كانوا قبل ذلك معنيين بدراسة

الميزوترون او الكهرب الثقيل وهو من مكتشفات سنة ١٩٣٧ — ١٩٣٨

كانت المشكلة الاولى التي واجهها هؤلاء العلماء في بحثهم الجديد سعيهم الى تبين الطريقة التي يحدث بها هذا الانشطار. وكان الدكتور فرش وزميله ليز ميتنر أسبق الباحثين الى وضع صورة واضحة لهذه الطريقة. قالا: ان نواة الذرة في عرف الطبيعة الحديثة مجموعة من البروتونات والنوترونات محشوكة معاً في حيز ضيق. وعدد البروتونات الحرة في النواة يعين قدر الشحنة الموجبة عليها والخواص الكيميائية للذرة. ولكن النوترونات وحدات وزن ولا تحمل شحنة كهربائية لانها متعادلة الكهربائية. اما نواة ذرة الايدروجين فأبسط نوى الذرات تركيباً وتوامها بروتون واحد. فاذا ارتقيت سلم النوى الذرية وجدت في نواة كل عنصر عدداً متفاوتاً من البروتونات والنوترونات. فاذا بلغت الاورانيوم وهو في رأس السلم وجدت قوام ذرته اثنين وتسعين بروتوناً ومائة وستة واربعين نوتروناً ومجموعها ٢٣٨ وهو وزن الاورانيوم الذري. ولكن الاورانيوم له نظائر isotopes ومن نظائره نظيران وزن احدهما الذري ٢٣٤ ووزن الآخر ٢٣٥ ورغبة في الاختصار عند الكلام على الاورانيوم ونظائره يكتب الاورانيوم في الرسائل العلمية كما يلي: — فالرقم الأعلى يدل على الوزن الذري والرقم الاسفل على عدد البروتونات — اورانيوم $\frac{٢٣٨}{٩٢}$ او $\frac{٢٣٥}{٩٢}$ او $\frac{٢٣٤}{٩٢}$

ومن الحقائق المعروفة في علم الطبيعة الحديثة ان جميع العناصر التي تفوق الزئبق وزناً — وهي التاليوم والرصاص والبزموت والبولونيوم والرادون والراديوم والاكتينيوم والتوريوم والبروتاكتينيوم والاورانيوم — لها نظائر مشعة. ونوى هذه النظائر معقدة التركيب غير مستقرة. فتطلق النواة عادة دقيقة من دقائقها بغية الاستقرار فيكون ذلك اشعاعاً

ولعل خير مثل يضرب لتوضيح هذه الحالة هو تشبيه النواة بقطرة من الماء قوامها جزيئات كثيرة من الماء، فاذا حدث لاحد هذه الجزيئات التي على سطح القطرة ما جعل طاقته اعظم من طاقة الجزيئات الأخرى فانه ينفصل عن القطرة متبخراً. ولكن اذا حدث للقطرة حادث على جانب من العنف فان القطرة نفسها تنشطر قطرتين

وهذا في رأي فرش وميتنر عين ما يحدث لنواة ذرة الاورانيوم، عندما يحدث له حادث عنيف كاصطدامه بنوترون مقذوف عليه، اي ان النواة تنشطر شطرين يكادان يكونان متساويين

ولكن الشطرين غير مستقري التركيب، ولا يلبثان حتى ينحلا فتولد نوى ذرات أخرى. والواقع ان انشطار الاورانيوم على الطريقة المتقدمة يعقبه سلسلة من التحولات، وهذا يقتضي أن تظهر في مخلفات قذف النوترونات على ذرات الاورانيوم عناصر شتى. وفعلاً تمكن الباحثون من وجود الباريوم والانتيمون والتلوريوم واليود والزينون والسيزيوم والنتانوم في طائفة منها والبرومين

والكربتون والروبيديوم والسترنتيوم والإتريوم في طائفة اخرى ومن المحتمل ان تكون هناك قوى عناصر اخرى لم تحقق بعد

وتفسير هذا التعوُّد سهل لا يمنع مطلقاً على حقائق الطبيعة الحديثة . فعدد النوترونات في كل من الشعرين الاولين كبير بالقياس الى عدد البروتونات فيه . ولذلك لا بدَّ لكل منهما ان يتخلص من احد نوتروناته لكي يستقرَّ تركيبهُ . فيحدث احد امرين اما ان يقذف نوتروناً الى الخارج فينقص وزنهُ وحدة كاملة ولكن لا تتغير خواصه . واما ان تحلّ وحدة النترون فيتحول في داخله الى بروتون حرّ ويقذف كهيربه الى الخارج . وفي الحالة الثانية لا يتغير وزن النواة (لأن وزنها في عدد ما فيها من البروتونات) ولكن تزيد شحنتها الموجبة وحدة كاملة باطلاق الكهيرب (وهو وحدة الشحنة السالبة) فتتغير بذلك طبيعة النواة الكيميائية اي تصبح نواة عنصر آخر . وقد دلت التجارب ، على أن هذين الفطنين يقعان في خلال التحول

ولا يعلم حتى الآن ما هما المادتان الاصليتان الناجتان عن الانشطار . فاذا كان عنصر الباريوم احدهما — ونواتهُ فيها ٥٦ بروتوناً — فالعنصر الآخر يجب ان يكون عنصراً في نواته ٣٦ بروتوناً (لأن مجموع بروتونات نواة الاورانيوم ٩٢ بروتوناً) وهذا العنصر هو احد نظائر عنصر الكربتون

واذا اتجه الباريوم الى الاستقرار باطلاق كهيرب (راجع الطريقة الثانية من طرائق التحول) فانهُ يتحول نظيراً من نظائر اللنثانوم ، وهذا قد يتحول بدوره الى عنصر السيريوم باطلاق كهيرب . والكربتون (او نظيره) يتحل كذلك بالطريقة نفسها الى روبيديوم فسترنتيوم ومن المحتمل ان يتحول الى اتريوم فزركونيوم

واذا كانت نتيجة الانشطار الاول عنصري السترونتيوم والزينون بدلاً من الباريوم والكربتون حدثت كذلك سلسلة من التحولات من سترنتيوم الى اتريوم الى زركونيوم ومن زينون الى سيزيوم الى باريوم الى لنثانوم الى سيريوم

***

انهُ لأسهل على العلماء في كشف في العلم النظري من قبيل هذا الكشف ، ان يتبينوا ما لهُ من الشأن النظري قبل ان يتبينوا وجوه النفع العملي . وكشف « الانشطار الذري » أتاح لعلماء الطبيعة الحديثة فرصة نادرة للبحث في طبيعة قوام الذرة وقلب صفحة جديدة في دراسة القوة التي تربط اجزاء النواة بعضها ببعض

ثم انهُ فسر تفسيراً معقولاً ظاهرة غريبة ما فتىء العلماء محيرين في امرها منذ كشفت في سنة ١٩٣٤ . ذلك ان فرمي الايطالي تبين في تلك السنة عند ما اطلق النوترونات على الاورانيوم ، ان الكهيربات تنطلق من الاورانيوم نتيجة لهذا . فذهب ظنهُ حينئذٍ الى

ان نواة الاورانيوم تلتقط النوترون فتستبقي بروتونه وتطلق كهيربه ، وبذلك يزداد وزن ذرة الاورانيوم وحدة كاملة ، فظن انهُ تمكن بذلك من توليد عنصر جديد ، وزنه الذري ٩٣ مع ان الاورانيوم — ووزنهُ الذري ٩٢ — كان بحسب جدول مندليف الدولي وجدول موزلي للاعداد الذرية ، آخر العناصر وأثقلها . ثم لاحظ فرمي ان نواة هذا العنصر الجديد تطلق كهيرباً آخر فذهب ظنه كذلك الى ان ذلك يولّد عنصراً جديداً آخر وزنهُ الذري ٩٤ فأطلق على هذه العناصر التي تفوق الاورانيوم وزناً ذريًّا وصف « العناصر التي وراء الاورانيوم Transuranic » وتبعهُ آخرون في هذا الطريق ، فوجدوا عناصر أخرى وزنها الذري ٩٥ و ٩٦ و ٩٧ الخ

وقد ظلت هذه الظاهرة سرًّا مغلقاً محيّراً لالباب العلماء الى ان تمّ الكشف العظيم الخاص بانشطار الاورانيوم على يدي هان . والواقع ان هان نفسه صرّح قبل كشفه انهُ وجد في المخلفات الناتجة من اطلاق النوترونات على الاورانيوم عناصر « ترانس اورانية » ما خواص الباريوم واللنثانوم وغيرها . فزاد ذلك التصريح الحالة غموضاً والعلماء حيرة

فلما اذيع نبأ كشف « الانشطار الذرّي » وثبت ان الشطرين اللذين ينشآن عنهُ يتحوّلان أدرك العلماء حالاً أن هذه الكهيربات التي شاهد فرمي انطلاقها من الاورانيوم لا تنطلق منهُ فعلاً ولكن من مخلّفات انشطاره فحلّ بذلك لغز العناصر التي وراء الاورانيوم (الترانس اورانية)

— ٢ —

هذا يسير من ناحية ما لهذا الكشف من قيمة نظرية . وقد يكون من المتعذر الآن وزن ما له من قيمة عملية . ولكنا نستطيع ان نتصوّر القدر العظيم من الطاقة التي تنطلق عندما تنشطر ذرة الاورانيوم . وقد قيست طاقة انطلاق الشطرين فثبت انهما متحركان كأن قوة قدرها ٢٠٠ مليون كيرب فولط تدفعهما . وهذه قوة أعظم من كل قوة مماثلة في ظاهرات عالم الذرّات اذا استثنينا الاشعة الكونية

ولا يخفى ان وزن نواة الذرّة — مهما تكن الذرّة ما خلا ذرّة الايدروجين — لا يعدل تماماً مجموع اوزان الجسيمات التي تدخل في تركيبها . والرأي ان جانباً يسيراً جدًّا من مجموع اوزانها يتحول طاقة تربط هذه الجسيمات بعضها ببعض في نطاق النواة ولولاه لتناثرت وتباعدت

وهذا الفرق بين وزن النواة ومجموع اوزان الجسيمات يوصف بعبارة « نقص الكتلة » mass defect ولما كانت نواة ذرّة الاورانيوم أعقد تركيباً من نوى سائر الذرّات ، فالطاقة التي تحتاج اليها لتربط بين بروتوناتها (٩٢) ونوتروناتها (١٤٦) يجب ان تكون كبيرة بالقياس الى الطاقة التي تحتاج اليها نواة الهليوم او البثيوم مثلاً . واذن فنقص الكتلة الذي رافد هذه الطاقة يجب ان يكون كبيراً كذلك

وقد دلَّ البحث الذي قام به الاستاذ فردريك جوليو الفرنسي ومعاونوه ان النوترونات التي اطلقت على الاورانيوم كانت ذات طاقة ضعيفة ولكنهُ وجد انهُ عند ما يقع الانشطار في ذرَّة الاورانيوم تنبعث نوترونات منطلقة من الذرَّة بسرعة وطاقة عظيمتين ومغزى هذا القول ان العلماء توصلوا الى طريقة يستطيعون ان يطلقوا بها الطاقة المختفية في نواة الذرة

ذلك ان مدام كوري جوليو — كريمة بيير وماري كوري — كانت قد مهدت السبيل بمباحثها لاكتشاف هان. ثم اقبلت هي وزوجها وزميلها الاستاذ ساقتش على بحث هذه النوترونات الثانوية التي تنطلق من العناصر المتولدة من انشطار الاورانيوم الاول ، وجاراهم فريق من العلماء في جامعة كولومبيا ومعهد كارنيجي وجامعة كمبردج ، فوجدوا ان هذه النوترونات المنطلقة من هذه العناصر قوية الزخم تحدث انشطاراً في ما تصيبه من نوى ذرات الاورانيوم ومن مخلفات الانشطار الثاني تتولد نوترونات اخرى اقوى زخماً من الاولى والثانية ، وهذا فعل لانهاية له ولا يحدُّ منهُ الاَّ مقدار كتلة الاورانيوم المعرضة لفعل النوترونات الاولى المقذوفة من سيكلوترون لورنس [1] . فاذا اتيح للعلماء كتلة كبيرة من الاورانيوم فمن المحتمل ان يسفر هذا الفعل عن تولد طاقة عظيمة متى كثر عدد الذرات المنشطرة في تلك الكتلة . وقد اجمعت الصحف العلمية التي اطلعنا عليها على ان العلماء القائمين بهذه المباحث يتوجسون خيفة من انطلاق طاقة عظيمة بين ايديهم وهم لا يدرون كيف السيطرة عليها

ولكن يجب ألاَّ يذهب بنا الظن الى الاعتقاد ان استعمال الطاقة الذرية غدا وشيكاً . ذلك ان الطاقة المتولدة من انشطار نواة الاورانيوم يسيرة جداً بالقياس الى ما نحتاج اليه لأغراض الحياة اليومية وان كان عظيماً جداً بالقياس الى كتلة النواة نفسها . والباحث يحتاج الى احداث ٢٥ الف بليون انشطار في الثانية لكي يولد قوة حصان واحد . وجل ما تستطيعه معامل البحث الطبيعي إحداث بضع مئات من حوادث الانشطار في نوى الاورانيوم في الثانية . فاذا اقتضت اساليب شطر نوى الاورانيوم وما كان من قبيله من العناصر ، فاستعمال الطاقة الذرية يغدو في نطاق المستطاع . وانما يجب ان نذكر ان هذا الاتقان ليس بالامر السهل . فشطر نوى الاورانيوم باطلاق النوترونات عليها اشبه ما يكون الآن بمن يحاول ان ينقل رمال البحار من مكانها بنقلها حبةً حبةً ، او كمن يطلق رشاشاً على مئات من الحرز مثبتة في لوحة كبيرة والمسافة بين كل خرزة وأخرى عشرات الامتار [2]

---

(١) سائر عالمة نوبل الطبيعية سنة ١٩٣٩

(٢) يرجو محرر المقتطف قراءه أن يطالعوا هذا المقال مقروناً بمقال « الطاقة من المادة » مقتطف نوفمبر ١٩٣٩ صفحة ٤٢٧ — ٤٣٩ وما نشر بعده في مقتطف ابريل ومايو ١٩٣٩ عن هذا الموضوع وكان في مستهله

صلة الري بالصحة

في المملكة المصرية(١)

للدكتور محمد خليل عبد الخالق بك
استاذ علم الطفيليات بمدرسة الطب

﴿ ١ — تمهيد ﴾ كان نظام الري في القطر المصري من عهد ميا الى اواخر القرن الماضي هو المعروف بري الحياض اي أن النيل عند ما يطو في إبان الفيضان يطلق في الاراضي الزراعية فيغمرها ويستمر كذلك الى أن ينخفض الماء في مجرى النهر فتحسر المياه عن الشطان وتعود الى النهر ثم تزرع الارض محصولاً واحداً وتترك بعده حتى تجف جفافاً تاماً مدة ٢ شهور في السنة ثم تغمرها مياه الفيضان مرة اخرى

وقد كان من أثر هذا من الوجهة الصحية أن جميع الطفيليات التي تصيب الانسان وتقضي جزءاً من حياتها في الارض او في جداول المياه تهلك عن آخرها في فصل الجفاف كل عام ولذلك أصابت هذه الامراض عدداً قليلاً من السكان . وهذا ما نجده الآن في المناطق التي لا تزال تروى بطريقة ري الحياض في مديريات جرجا وقنا واسوان

وفي اواخر القرن الماضي بدىء باستعمال القناطر الخيرية في حجز المياه بمجرى النهر لتغذية الترع الرئيسية التي تروي الدلتا وبذلك أمكن توفير المياه للاراضي الزراعية طوال أيام السنة . فغدا في الوسع زراعة محصولين او ثلاثة محاصيل في السنة الواحدة

ثم انشىء خزان اسوان والقناطر الاخرى في مجرى النهر ، وكان الغرض من هذه الاعمال الهندسية تحويل اكبر مساحة ممكنة من الاراضي الزراعية من ري الحياض الى ري مستديم . ومنذ الحرب العالمية الماضية اتجهت الاعمال الهندسية الى ايصال مياه الري الى الاراضي الزراعية بدون حاجة الى آلات رافعة سواء ما أدير منها بالقوى العضلية كالشادوف والطنبور او بالسواقي والآلات البخارية وآلات الاحتراق الداخلي . وقد تم ذلك في جميع انحاء الدلتا بوجه عام وفي أغلب مناطق الوجه القبلي شمال اسيوط والعمل جار الآن في تحويل المنطقة التي تقع شمال نجع حمادي الى اسيوط من ري حياض الى ري مستديم

---

(١) ملخص واف لتقرير قدمه الدكتور عبد الخالق بك الى المجلس الاستشاري للزراعة

وكان من أثر ذلك أن ارتفعت المياه الجوفية في باطن الارض حتى اقتربت من سطحها وهذا عامل له دخل كبير في انتشار الامراض وخصوصاً الحشرات التي تصيب الانسان والحيوان والنبات وزيادة على ذلك فالماء يؤثر بطريق مباشر تأثيراً سيئاً في نمو النباتات وبمقادير محصولها اذ تحول هذه المياه الجوفية دون امتداد جذور النبات في التربة

الري الدائم وأضراره الصحية

﴿ ٢ — الماء الجوفي في الاراضي الزراعية ﴾ ولادراك ذلك يجب أن نعلم ان التربة المصرية المزروعة مكونة من مواد تنفذ منها المياه بسهولة وعلى ذلك فنهر النيل لا يجري بياهه بين شاطئيه المبروفين فحسب، بل انها تجري في باطن الارض الى مسافات طويلة على الجانبين لا يصدها عن الجريان الا سلاسل الجبال الصخرية على جانبي الوادي، وفي وسعنا ان نسمي هذا الماء المتسرب «النيل الخفي» تمييزاً له عن «النيل الظاهر» المعروف لنا ويمكن التحقق من ذلك بسهولة اذا حفرنا الارض على جانبي النهر فنجد المياه على ابعاد مختلفة تبعاً (١) لبعد المسافة من النهر، (٢) لمنسوب الماء في مجرى النهر. وهذه العملية تشاهد في القاهرة عند حفر اسس المنازل في إبان الفيضان، حيث الماء قريب من سطح الارض فاذا غاض النهر بعد الفيضان اختفت هذه المياه ولكنها توجد على عمق اكبر وهذا هو السبب الرئيسي في ظهور كثير من البرك في اماكن بعيدة عن مجرى النهر في زمن الفيضان وجفافها في باقي فصول السنة

وتأثير ترع الري المليئة بالماء من هذه الناحية مماثل تماماً لتأثير النيل وشرح ذلك ان ماء الترع يتدفق وينساب في باطن الارض ويبلغ أعلى درجاته بالقرب من مجرى الترعة وينخفض مستواه كلما ابتعدنا عنها. وكلما زاد ارتفاع مستوى الماء في ترع الري بالنسبة للاراضي الزراعية المجاورة ارتفع الماء الجوفي في الارض بل قد يظهر على سطح الارض فيحدث البرك والمستنقعات

﴿ ٣ — علاقة الماء بانتشار الطفيليات ﴾ والماء الدائم عنصر هام من عناصر الحياة التي لا غنى عنها بدونها للحيوانات الدنيئة والتي منها الطفيليات أن تعيش. فعدوى الانكلستوما تتوطن في كثير من الاقاليم التي يكثر فيها المطر وتبدأ العدوى بعد فصل الامطار. ولكن هذا المرض ذاته لا علاقة له بالامطار في مصر لأنها معدومة تماماً في الوجه القبلي وهي قليلة جداً في بقية جهات القطر. لكن الأثر الذي تحدثه الامطار في البلاد الاخرى من جراء تشبع التربة بالرطوبة يقوم مكانه في مصر ارتفاع الماء الجوفي في باطن الارض تبعاً لارتفاع المياه في الترع المجاورة. وكلا العاملين (الامطار والمياه الجوفية) يؤدي الى نتيجة واحدة. فعدوى الانكلستوما قليلة جداً في قرى مديرية اسوان التي لا أمطار فيها ولا ترع ذات منسوب عالٍ على مدار السنة. ولكنها في منطقة كوم امبو الواقعة في نفس تلك المديرية تبلغ ٢٩ ٪ من مجموع

السكان هناك لان هذه المنطقة بالذات تروى ريًّا سيئًا بواسطة طلمبات وترتفع المياه الجوفية في أرضها حتى تقترب من سطح الارض ، مما ادى الى تلف اراضي قرية دراوة المجاورة من تأثير التشع حتى قامت بين أهلها وبين شركة كوم امبو قضايا

ومثل هذا ينطبق تماماً على البلهارسيا التي تعيش القواقع الناقلة لها في مجاري المياه البطيئة الجريان الدائمة الماء والتي بها اعشاب . وهذا لا يتحقق الا في مناطق الري المستديم فيما تكاد مديرية اسوان تكون خالية من عدوى البلهارسيا مجد أن ٨٢٪ من سكان كوم امبو مصابون بها

ومما تقدم يتبين بجلاء علاقة الري الصيفي بانتشار الامراض المتوطنة على وجه العموم . ولا سيما الانكلستوما والبلهارسيا والملاريا . ولكنه قد لا يوضح تماماً مقدار هذا الأثر ، لذلك اختلفت الآراء في تقدير اثر الري الصيفي في انتشار الامراض المتوطنة وهل هو من الاهمية بحيث يقف حجر عثرة في سبيل هذه المشروعات او هو تافه بالقياس الى مزاياه الاقتصادية

﴿ ٤ — عدوى الطفيليات قبل ادخال الري المستديم وبعده ﴾ وقد سنحت فرصة حسمت هذا الخلاف حينما اعتزمت وزارة الاشغال تحويل الحياض المنزولة في اسوان وقنا من ري حوضي الى ري صيفي ، فقد انتهزت هذه الفرصة لفحص سكان مناطق الباعية والكلح وبنبان والمنصورية قبل ادخال الري الصيفي اليها ، فكانت النتيجة ان نسبة البلهارسيا بلغت في هذه المناطق على التوالي : صفر ٪ — ٧ ٪ — ٢ ٪ — ١٠ ٪ والسبب في ان المنطقة الاخيرة (المنصورية) تزيد فيها نسبة البلهارسيا عن المناطق الاخرى ، يرجع الى انها قريبة من كوم امبو التي تبلغ اصابة البلهارسيا فيها ٨٢ ٪ وأكثر سكانها يذهبون الى كوم امبو للاشتغال بها بعض الوقت

وبعد ادخال الري الصيفي الى هذه المناطق واستمراره بها ثلاث سنوات صارت النسبة لعدوى البلهارسيا كما يأتي على التوالي — ٤٤ ٪ — ٥٠ ٪ — ٧٥ ٪ — ٦٥ ٪ مما يثبت بكل جلاء وعلى وجه لا يقبل الشك اثر الري الصيفي بحسب النظام المعمول به الآن في انتشار عدوى البلهارسيا . على انه يتبين من هذه الارقام ان الزيادة ليست متجانسة في هذه المناطق وذلك راجع الى أسباب أهمها قرب مجاري المياه أو بعدها من هذه القرى ، وبالتالي الى سهولة أو صعوبة وصول الأهالي اليها والاغتسال فيها

وقس على ذلك ، مرضي الانكلستوما والملاريا ، فانهما أيضاً يختصان لعاملي تشبع تربة الارض بالماء ودوام جريان الماء في الترع والمصارف

﴿ ٥ — الخسارة الاقتصادية نتيجة الاصابة بالامراض الطفيلية ﴾ ان رجال الزراعة لم يدخلوا في حسابهم عند المقابلة بين غلة ري الحياض والري الصيفي ، أثر الري الصيفي في انتشار

الامراض وقلة الانتاج من العمل اليدوي وكثرة الوفيات

ومما لا شك فيه أنهُ اذا قدرت هذه العوامل من الناحية الاقتصادية — بغض النظر عن العامل الانساني — رجحت كفة ري الحياض على الري الصيفي . كما يتبين مما يلي : —

(١) فالامراض الطفيلية تصيب ٧٥ — ٩٥ ٪ من سكان مناطق الري الصيفي ، بينما لا تصيب سوى ٥ — ١٠ ٪ من سكان مناطق الحياض . ولو قدرنا ما يجب أن تنفقهُ الدولة كل عام لعلاج المصابين بالبلهارسيا (الذين يبلغون عشرة ملايين) لاقتضى ذلك مليوناً من الجنيهات سنويًّا . وستتكرر العدوى ما دام هذا النوع من الري قائماً . وتقدر نفقات علاج الانكلستوما في العام الواحد للمائة ملايين مصاب بما يقرب من ٣٠٠٫٠٠٠ الف جنيه

٢ — نظراً الى اصابة السكان في سن مبكرة بالبلهارسيا والانكلستوما في مناطق الري الصيفي فان نمو اجسامهم يبطؤ . وقد أثبت فحص الطول في أنحاء القطر في سنة ١٩٣٥ ان للامراض الطفيلية أثراً في نسبة قصر القامة بين المقترعين فهي اكثر انتشاراً في الدلتا حيث الري الصيفي عام والصرف سيء ، ويقل عن ذلك نوعاً ما في مصر الوسطى حيث الري الصيفي يكاد يكون عامًّا بينما الصرف أحسن منهُ في الدلتا لأن النيل يجري في وسط الوادي الضيق يؤدي عمل مصرف طبيعي الى حدٍّ كبير . وتقل نسبة قصر القامة جداً في مناطق ري الحياض . بينما تكاد تنعدم بين سكان القاهرة والاسكندرية حيث لا سبيل الى العدوى بالطفيليات

٣ — الزيادة في الوفيات خصوصاً وفيات الذكور لانهم اكثر تعرضاً للبلهارسيا لاشتغالهم بالاعمال الزراعية خصوصاً تلك التي تستدعي الخوض في الماء

فقد نشر كوفان الالماني وكان أستاذاً لعلم الامراض في مدرسة الطب بالقاهرة في أواخر القرن الماضي — عند ما كانت البلهارسيا مرضاً غير معروف له علاج — أن البلهارسيا هي السبب المباشر او السبب غير المباشر في ٢٥ ٪ من الوفيات نتيجة لفحص عدد كبير من الاموات في مستشفى قصر العيني بالتشريح وطبعاً قلت هذه النسبة الآن بعد اكتشاف العلاج الشافي

الا انهُ من الثابت ان نسبة عدد الذكور الى الاناث قد تغيرت على وجه العموم في مصر منذ ادخال نظام الري المستديم بها خصوصاً في المديريات التي حولت كلها الى ري مستديم وقلَّ او انعدم الصرف بها استناداً الى الاحصائيات المأخوذة من كتب التعداد الرسمي الذي تصدره مصلحة الاحصاء التابعة لوزارة المالية مع العلم بأن الري المستديم أدخل الى الوجه البحري سنة ١٨٩١ والى مديرية المنيا سنة ١٩٠٥ وبني سويف سنة ١٩٠٧ والجيزة ١٩٠٩

وعلى ذلك فقد نقص عدد الذكور بالنسبة لعدد الاناث ٤ ٪ في مدة ٣٠ سنة تبعاً لانتشار الري الصيفي وليس هناك أي عامل آخر يفسر هذا التغير . ومما يثبت ذلك السبب ما ذكره الدكتور

كيلاند في حالة بعض المديريات قبل ادخال الري الصيفي اليها وبعده. فقد كان عدد الذكور لكل ١٠٠٠ أنثى في مديرية المنيا في تعداد سنة ١٩٠٧ — ١٠١٣ فصار في تعداد سنة ١٩٢٧ — ١٠٠٢ وقد دخلها الري المستديم سنة ١٩٠٥

وكان عدد الذكور لكل ١٠٠٠ أنثى في مديرية بني سويف في تعداد سنة ١٩٠٧ — ١٠١٦ فصار في تعداد سنة ١٩٢٧ — ٩٩٥ وقد دخلها الري المستديم سنة ١٩٠٧

ولو قابلنا الحالة في مديرية من مديريات الوجه البحري حيث الري المستديم عام مع عدم توفر الصرف تماماً في سنة ١٩٢٧ بما يقابلها في مديرية من مديريات ري الحياض لتبين ما يأتي :

مديرية الغربية تبين ان بها ٩٣٠ ذكراً لكل ١٠٠٠ أنثى بينما مديرية جرجا بها في نفس السنة ١٠٢٠ ذكراً لكل ١٠٠٠ أنثى وهذا على الرغم من ان مديرية جرجا تمتاز بكثرة عدد المهاجرين من رجالها للعمل في جهات اخرى . فلو قدرنا أثر الري المستديم في نقص عدد الذكور بالنسبة لعدد الاناث على أساس تعداد الغربية وجرجا لبلغ النقص في مناطق الري المستديم ٩ ٪ وهو رقم مخيف حتماً يمثل ضحايا الري المستديم من مجموع عدد الذكور

٤ — قلة الانتاج في الاعمال اليدوية ، فقد تبين بعد التجربة أن انتاج المصابين بالانكلستوما يقل ٣٣ ٪ في مثل أعمارهم عن الاشخاص الخالين منها . وقد ثبت بالمقابلة أن نسبة عدد الفلاحين الى الارض المزروعة في مصر، اكبر منها في أي قطر زراعي آخر، ذلك أن الفلاحين يستعيضون دون ان يفكروا ، عن قلة انتاج الفرد بالاكثار من الايدي العاملة

وقد وجد المستر براون مدير قسم البساتين أن نفقة حفر قناة تريد في مصر عنها في انكلترا على الرغم من بخس أجرة العامل المصري . وتكاد تكون قوة العامل الصعيدي من اهالي مناطق الحياض ، مضرب الامثال بالقياس الى ضعف فلاح الوجه البحري. ويكاد هؤلاء المصابون أن يحتكروا الاعمال اليدوية الشاقة كبناء الموانىء وشق الترع ومد السكك الحديدية . . الخ .

٥ — تؤثر هذه الطفيليات تأثيراً ملحوظاً في بطء نمو القوى العقلية ، وقد قدرت في المصابين بالانكلستوما بسنتين ونصف سنة في سن الحادية عشرة . أي أن الطفل المصاب وهو في الحادية عشرة من عمره يماثل من ناحية القوى العقلية طفلاً سليماً في الثامنة من عمره

ومن أثر هذا الضعف العقلي عدم الاقدام على طلب الرزق والاحتماء بالأهل والأقارب من غائلة الدهر ، وانحطاط مستوى الخلق بالالتجاء الى الكذب والمداورة في المعاملات

٦ — ضياع مقدار كبير من الاغذية التي يتناولها سكان مناطق الري المستديم تأكلها الطفيليات التي تعيش داخل أجسامهم كما هو المشاهد في نهم المصابين بالديدان المعوية بينما لا يظهر تأثير هذا النهم في ابدانهم

وعلى ذلك فسكان أقاليم الري المستديم هم المصابون بأمراض سوء التغذية على الرغم من أنهم يأكلون أضعاف ما يأكله أهالي ري الحياض وزيادة على ذلك فأهل الحياض أقوى بنية وأطول عمراً وأطول قامة

***

العوامل واجبة لتحسين الصحة والزراعة

٧ — عوامل تحسين الصحة هي نفس العوامل التي تحسن الزراعة : ان الاثر السيء الناتج عن الري الصيفي في تدهور التربة ونقص غلة المحاصيل يرجع الى ارتفاع منسوب المياه الجوفية وأثر ذلك في اعاقة النباتات عن النمو وحصر جذورها في طبقة من الارض كما يرجع الى أن المياه الجوفية عند ما تقترب من سطح الأرض السوداء الثقيلة او المتوسطة تصعد بواسطة الخاصة الشعرية الى سطح الارض وتتبخر في الجو فيرسب ما بها من الأملاح على سطح الارض فتكون طبقة بيضاء اللون تغطيها وهذا عامل هام في اتلاف التربة

ويزيد هذا الضرر كلما زاد منسوب الماء في الترع وازداد تبعاً لذلك ارتفاع المياه الجوفية والعوامل التي تؤثر في نشر الطفيليات بمناطق الري الصيفي هي :

ا — استمرار المياه في الترع والمصارف على مدار السنة فتعيش القواقع الناقلة لبلهارسيا وتتناسل

ب — استمرار المياه يساعد على نمو الكثير من النباتات المائية التي تأوي اليها القواقع وبرقات البعوض الناقل للأمراض . وهذه الحشائش عائق هام في سريان الماء في الترع حتى ان وزارة الأشغال تنفق كل عام حوالي ١٠٠ الف جنيه للتخلص منها

ج — ارتفاع المنسوب في الترع يرفع منسوب الماء الجوفي ويجعل تربة الارض وطبقة صالحة لتوالد القواقع الناقلة التي تموت تماماً اذا جفت تربة الارض

د — ارتفاع منسوب الماء الجوفي هو العامل الهام في ظهور البرك ولو انخفض هذا المنسوب لجفت اكثر البرك وليس لنكلها أثر ضار من ناحية انتشار الطفيليات

٨ — أثر المصارف في خفض منسوب المياه الجوفية

تبين مما تقدم ان علو منسوب المياه الجوفية هو العامل الضار الاصلي للصحة والزراعة ويمكن خفض هذا المستوى باحدى الطريقتين الآتيتين او بكلتيهما

ا — انشاء مصارف عميقة يكون من أثرها جمع المياه الجوفية وحملها الى البحر المتوسط بحيث لا يزيد مستوى الماء الجوفي عن مستوى الماء في المصرف الا قليلاً . . وعلى ذلك فعمق هذه المصارف عامل أساسي في خفض مستوى الماء الجوفي . ومن الغريب انه لم يستقر رأي

الاخصائيين في مصر للآن على (بعد مستوى الماء الجوفي عن سطح الارض بحيث لا يضر بالمحصولات الزراعية مطلقاً) فبعض الزراعيين ورجال الري يكتفي بأن يكون الماء الجوفي في الارض الزراعية على عمق ٧٥ سنتمتراً وبعضهم يطلب متراً وبعضهم يصر على ٢٫٥ متر خصوصاً في الارض المزروعة بحدائق الفاكهة ومما لا شك فيه ان هذا التفاوت العظيم يقابله تفاوت كبير في النفقات اللازمة لحفر المصارف الى الاعماق المطلوبة وتفاوت كبير في مقدار الاراضي الزراعية التي ستشغلها هذه المصارف لان مقدار الارض المشغولة بالمصرف تزيد زيادة كبيرة كلما زاد عمقها

والمطلوب معرفته هو اقل عمق للمصارف الحقلية الذي تجود معهُ الزراعة جودة تامة . ولا يمكن ان نأبه لقول بعض الاخصائيين أنه لا ضرر من زيادة عمق المصارف ، وهو صحيح ولكنهُ يتطلب نفقات كثيرة ويشغل ارضاً كثيرة يمكن الاستفادة منها بزرعها

ب — يمكن خفض مستوى الماء الجوفي بخفض مستوى الماء في ترع الري فلو جرى الماء في هذه الترع على بعد متر او مترين من السطح لما صعد مستوى الماء الجوفي عن ذلك المستوى وفي هذه الحالة تكون فائدة المصارف ثانوية ، ولكن في نفس الوقت يتطلب ذلك ان يستعين الفلاح بآلات رافعة لري أرضه

والمسألة الآن هي تقدير النفقات والاضرار في كلتا الطريقتين . فهل تكون نفقة رفع الماء للري اقل او اكثر من خسائر تدهور التربة ونقص المحصول . وما قيمة النفقات اللازمة لانشاء مصارف وافية مع العلم بأن المصارف لا يمكنها ان تلافي تماماً ما ينتج من الرشح من الترع ذات المنسوب العالي لان خطالمياه الجوفية يبدأ من أعلى منسوب للمياه في المنطقة ويصل الى أوطإ منسوب للمياه فيها والترع تشق في أعلى مكان بالمنطقة ليسهل الري منها ، وتشق المصارف في المنخفضات ليسهل انسياب المياه اليها

اما الاحتياطات التي تجب مراعاتها في مشروعات الري الصيفي لتخفيف عدوى البلهارسيا فأهمها : —

١ — ان تكون مجاري المياه على بعد من القرية لا يقل عن ٥٠٠ متر الى الف متر لأن البحث أثبت ان الاصابة تزداد بالقياس الى قرب المجاري الى القرى والعزب فتكثر زيارة السكان لها ولا سيما الاطفال بقصد اللعب او الاستحمام او الصيد ٢ — العناية باقلال النهايات الصم للترع حتى لا يركد الماء فيكثر نمو الاعشاب والقواقع فيه ٣ — منع ايصال خزانات المواد البرازية في المنازل والمساجد الى الترع والمصارف وهذه كثيرة الحدوث حتى في ضواحي القاهرة . فقد أثبت البحث الاحصائي ان القواقع ولا سيما البلانوربي التاتة لعدوى البلهارسيا بالاسماء تكثر مكان اختلاط مجرى المواد البرازية بماء الترعة او المصرف وتكون الاصابة شديدة . وقد

شوهدت هذه الطاقة في قرية طنان الغربية من قلوب مما حمل سكانها على الاعتقاد بأن بالترعة شيطاناً ينزل الموت بمن يخوض ماءها

وقد وضع ابراهيم بك رزق مشروعاً به كثير من المزايا الصحية والزراعية علاوة على انهُ يوفر على خزانة الدولة كثيراً من النفقات وأساسهُ انشاء طلمبات للري في اراضي الحياض الباقية تدار بالكهربائية من خزان اسوان (طلمبة لكل ٥٠٠ فدان على المعدل) وتستمد هذه الطلمبات ماءها من المياه الجوفية . فاذا نجح هذا المشروع من الناحية العملية ادى الى انخفاض المياه الجوفية ، الاحتفاظ بالري الحوضي والمحافظة على خصب التربة وسرعة جفاف الترع بعد الري وهذا يساعد على التخلص من قواقع البلهارسيا وبرقات البعوض . وجفاف تربة الارض يجعلها بوجه عام غير ملائمة لنمو برقات الانكلستوما ثم يفضي الى الامتناء عن مشروعات الري في اعالي النيل وبحيرة البرت وهي المشروعات اللازمة لتحويل الحياض الباقية الى الري المستديم

***

سياسة الري ومشكلتنا الاجتماعية

﴿١١ — تقرير سياسة الري في المستقبل هو مشكلة المشاكل﴾ رأينا مما تقدم ان مسائل الري والزراعة والصحة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً حتى ليكاد اي تغير في احداها يؤثر في الاخرى وللاسف ان النظام الاداري في مصر يجعل من كل من هذه الاعمال الثلاثة وزارة مستقلة عن الاخرى تعمل كل منها في وادٍ مستقل . وقد تبين الآن انهُ من الضروري ان يكون هناك تعاون وثيق بين العاملين في هذه الدوائر الثلاث فان الفلاح متأثر في محيطه بالري والزراعة والصحة بحيث ان حياته وترقيته متوقفة عليها جميعاً وأي ناحية منها تؤثر في الاخرى

وقد سار رجال الري في العهد الاخير على سياسة اعطاء مياه الري بالراحة يرفع منسوب الماء في الترع عن الارض المجاورة بقصد تقليل نفقات الزراعة بعدم الالتجاء الى الآلات الرافعة ولكن هذا العمل نفسه قد اضر بالتربة برفع الماء الجوفي فيها وأضر بصحة الانسان لزيادة الرطوبة في سطح الارض ودوام الماء في مجاريه فهل زادت قيمة هذه الاضرار عن مقدار ما اقتصده في الاستغناء عن الآلات الرافعة او لا ؟ ! . . .

فهناك المنوفية مثلاً وهي تكاد تكون حديث جميع الزراع من ناحية خصبها وكثرة انتاجها وزيادة محصولاتها في العهد السابق ايام اعتمادهم على الآلات حتى ليقولون لك ان الفدان (بقيراط) اي ان كل قيراط يأتي بأردب ذرة . . . اي ان محصول الفدان ٢٤ اردباً فانحط بعد ادخال الري بالراحة الى ٤ او ٥ ارادب في اكثر المناطق

وقد حاولت وزارة الاشغال تحسين هذه الحال بخفض منسوب الماء الجوفي بشق المصارف وقد امكنها فعلاً عمل المصارف الرئيسية في المنوفية ولكنها عجزت عن شق المصارف الفرعية والحقلية نظراً للصعوبات القائمة في لائحة الترع والجسور التي تجبر اي مالك على السماح لجاره بمرور ماء الصرف في ارضه وهي مشكلة جد معقدة اذ ان المالك الصغير يكاد يضحي بجميع ما يمتلكه اذا اراد جاره له ان يشق طريقاً للصرف في ارضه

وعلى ذلك لم تأت المصارف الرئيسية في القطر كله بأثرها المطلوب فهل آن الأوان لاعادة درس الموضوع من جديد والمقارنة من الوجهة العملية البحتة بين نظام الري بترعة ذات منسوب واطيء وترعة ذات منسوب عالٍ وتقليل مستوى الماء الجوفي الموافق للزراعات المصرية ؟

ان مستقبل مصر يكاد يتوقف على حل هذه المشكلة فهي تؤثر في القطر كله من الوجهتين الاقتصادية والصحية وهما أثمن ما يحرص عليه الفرد وتحرص عليه الأمم

وقد كان رجال الري في ابتداء القرن الحالي أشد حرصاً وأكثر حذراً في تقدير أثر هذه المشروعات في الصحة العامة فعلق مشروع خزان اسوان على موافقة الهيئة الصحية في مصر وكذلك اتخذوا مبدأ ينص على ان لا تنفذ مشروعات ري شاملة لاكثر من مديرية واحدة ما لم يؤخذ رأي مصلحة الصحة

وللأسف لم تكن المعلومات في ذلك العهد كافية يمكن معها التنبؤ بما سيحدثه الري الصيفي من الاضرار الصحية ولكنها صارت الآن جلية جداً لا تحتمل المناقشة والواجب ان يتعاون رجال الري مع رجال الصحة ورجال الزراعة لايجاد حل لهذه المشكلة التي ربما كانت أبعد المشاكل أثراً في مستقبل مصر

ليست أعمال الري الهندسية غرضاً مقصوداً بذاته في مصر بل هي اعمال القرض منها تحسين الحالة الزراعية لتعود بأكبر نفع اقتصادي على سكان هذا القطر وأغلبهم من المزارعين ولكن يجب أن لا نضحي بصحة وحياة هؤلاء المزارعين في سبيل زيادة الانتاج الزراعي ولم يقف العلم مكتوف الايدي امام ايجاد حل يوفق بين هذه الاغراض مع المحافظة على صحة السكان . وعلى ذلك يجب ان لا يعمل رجال الري على انفراد في تقرير هذه المشروعات بل يجب ان يتعاون معهم رجال الزراعة ورجال الصحة وربما يكون من الخير ان يؤلف مجلس اعلى لمشروعات الري يكون تابعاً لمجلس الوزراء وتعرض عليه جميع المشروعات الجديدة ، ويكون اعضاؤه مهندس ري واخصائيًا زراعيًا وطبيباً ، ولكل منهم ان يستعين بالهيئة التابع لها في دراسة ما يعرض من الموضوعات

قلبي ...

لحسن لأمل الصيرفي

أُقضي عنهُ تَداهُ وانشقيهِ فهو زهرهْ
غسلتها في سكونِ السَّحرِ المفتونِ قطرهْ
قضَّ الفجرُ عليها سحرهُ والصبحُ سِرُّهْ
وعلاها في الضحى النو رُ فقالتْ منهُ سِرُّهْ
وبدتْ عند الاصيـــل الأرجوانيِّ كخمرهْ
عطف الليلُ إليها فمضى يفتحُ صدرهْ
ورأى الشاعرُ فيها مصدراً يلهمُ شعرهْ
فاقطفيها ! إنها قلـــبي.. فأَوْحَ بعطرهْ !

أرهفي السمعَ اليهِ إنهُ البلبلُ يشدو
ساهرَ الليلِ ، ولكنْ هو لا يضنيهِ سهدُ
أَتدرينَ الذي ينشدُ ؟ لا تدرينَ بعدُ !
ملأَ الجوَّ اناريـــدَ فهذا الجوُّ عبدُ
ينقلُ الالحـــانَ كالـــوحي أميناً فهي عهدُ
لم يضنّهُ ؛ ولكنْ سامعُ الالحانِ صلدُ
كلهم للدومِ عبدا نٌ ، وللأوهام جندُ
فاسمعيهِ أنتِ فالبلبـــلُ قلبي باتَ يشدو !

إنهُ فهو كأسٌ لمستها يدُ ربي
جمعت فيهِ الأماني حُضُراً من كلِّ صوبِ
وهو من صنعِ يدِ الأحـــلامِ في ليلةِ حبِّ

وهو أنقى من رؤى الشا عر في ساعة قرب
انتشت منهُ العذارى وهو أسطورة غيب
كان ملوءا ، ولكنْ جفَّ من إدمان شربي
فاملئيه خمرة معصو رةً من كرم حبي
واشربيها فهي روحي واحفظيه فهو قلبي !

آنَ الجدولَ الجا ريَ في عطف الحليِ
سكبتْ فيهِ الليالي من أشعّات النجومِ
أدمعاً مازجنَ انـ ـداءَ من الفجرِ الوسيمِ
كوثرُ الفردوسِ أوحا هُ الى دنيا الهمومِ
فجرى يبعثُ فيها من تهاويل النعيمِ
راحةَ الله التي حطّـ ـتْ على الكونِ الاليمِ
إنهلي منهُ فما تعـ ـدلهُ خمرُ الكرومِ
انهُ قلبي على شطّـ ـيهِ اطيافُ رسومي... !

واذا مرّتْ بكِ الايّـ ـامُ تطوي الصفحاتِ
وتلاشتْ من فمِ الـ ـدنيا معاني البسماتِ
وتلاشتْ إثرها عنـ ـدكِ أحلى الذكرياتِ
بقيَ العطرُ الذي استـ ـروحتهِ من زهراتي
والصدى العذبُ الذي استـ ـطربتهِ من أغاني
وجلالُ النشوةِ الحلـ ـوةِ من كأسِ حياتي
وخريرُ الجدولِ الحـ ـالمِ في هذا الباتِ
فأعادتْ لكِ أحـ ـلامَ الليالي الخالداتِ

عاطفة الحب

وكيف نشأت

لدريب عباسي

مما أثر عن أرسطوفانيس ، شاعر الكوميديا اليونانية قوله هازلاً متظرّفاً : « كان زمان وكان فيه الجنسان ، شيئاً واحداً . ولكن الله رأى ، جزاء وفاقاً للانسان على شروره العديدة ان يشطره الى شطرين كما تشطر البيضة بشعرة ، وعليه فكلٌّ منا ليس الاّ جزءاً من انسان ، ومن هنا نرانا لا نفك قط عن طلاب جزئنا الآخر المكمّل لنا وهذه الرغبة وذياك السعي في سبيل ما يكمّلنا هما ما أسماهما الناس بالحب »

هذا التعريف ، كما جاء على لسان الشاعر الهازل الظريف هو خير تعريف لهذه العاطفة . واذا نحن رجعنا الى علم النشوء نستنطقه ونستوحيه ، وجدناهُ يكاد يساير هذا التعريف الشعري القديم مسايرة تدعو الى أشد الدهشة والاعجاب

وهذا ايجاز شديد لما يقوله علم النشوء في هذا الشأن : يقول علم النشوء : كانت الارض ، وبرّت عليها الحقب الطوال دون أن يكون فيها ذو نسمة من نبات او حيوان ثم أمر الله ان يكون أوّل الاحياء ، فكان . وهذا الحيّ الاول لم يكن يعدو الخلية الواحدة البسيطة غاية البساطة ، الصغيرة غاية الصغر ، وتكاثرت هذه الخلية البسيطة الصغيرة ما شاء الله لها ان تتكاثر. الاّ انها تكاثرت لا بطريق العشق والهيام ، انما تكاثرت بطريق النموّ والانقسام : تكاثرت وتعدّدت بالانقسام من خلية واحدة نمت بالنماء وكبرت الى حد لم تستطع عنده تماسكاً ، فانقسمت الى خليتين ، في كل منهما خصائص الخلية الاولى وصفاتها . ومضت الحياة تخلق خلقها وتنتج نتاجها على هذا النحو المتشابه المتماثل احقاباً طوالاً لا يعلمها الاّ الله ، الى ان ملّت الانسجام في التوليد وبرمت بالمتشابه من الخلق . والحياة ، كما نعلم ذلك جيداً ، فتاة يطبعها ترى التنويع وخروج الفرع على الاصل ، شهي أمانيها وأبعد مراميها . ومن هنا هذا الذي نراهُ من استحالة التشابه التام في الحياة استحالة مطلقة

وجاء طورٌ ثانٍ. وخطت الحياة خطوة اخرى جريئة لا ريب تعدُّ فتحاً في عالم الخلق والتكوين، ولا سيما في ذياك الوقت الذي كانت تدبُّ فيه الحياة كمن أسدل على عينيه ستار وقامت في وجهه غشاوة . رأت الحياة ان تضمَّ بين عدد من هذه الخلايا الأحادية، في غلاف هلامي تتعاون على الحياة والنماء والخلق في اسلوب غير الاسلوب الذي اعتادته وحذقته. وسجل هذا الاكتشاف او الفتح، او ما شئت فسمِّه، في سجل الحياة ومضت الاحياء تحيا هذه الحياة امداً رأت في خلاله ان من الخير لها ان تجري على شيء من التخصص، فشرعت الخلايا الخارجية في هذه المجموعة تتخصص في استجلاب القوت والغذاء للمجموعة كلها. اما الخلايا الداخلية فقد مضت على سنتها في الخلق والتوليد بطريق الانقسام المعهود

***

والنجاح كما تعلم ذلك جيداً، يولد النجاح. ومن هنا لم تكتف الحياة بما احرزت من نصر ونالت من فوز في مجال النشوء. فقامت تجرب أن تخطو خطوة اخرى؛ لا سيما وقد لاحظت أن اسلوب الانقسام الذي ما زالت تجري عليه اسفر، بعد الحقب الطوال، عن ضعف اكيد في الانتاج وخمود في الذرية حتى خشيت معهما أن يفنى النسل ويزول الى غير رجعة. وتشاء القدرة الملهمة ان توجه الحياة عند هذا الطور الخطر من النشوء توجيهاً يعد حقًّا من لحظات الدهر الخالدة. وذلك انه بدل ان تمضي هذه الخلايا تنمو وتتكاثر على اسلوب الانقسام الذي وصفنا احدثت بينها حركة عكسية — اي بدل المضي في التوليد على اسلوب الانقسام وزيادة الضعف ضعفاً أوحت بالوحدة والتضام بين هذه الخلايا المنوكة. وتقدمت اولى خليتين في تاريخ النشوء وتمثت كل واحدة من ذاتها في اخرى ثم انفصلتا وكم كانت دهشة الحياة بالغة لما رأت هذه الخلايا الضعيفة الحائرة تزخر من جديد بالنشاط والحركة وفيض القوة

وكأن الحياة اكتفت بهذا القدر من النجاح تصيبه في هذا النشاط يعود الى هذه الخلايا بعد ان استولى عليها الاعياء ودبَّ فيها الكلال. فمضت حقبة طويلة لا تبدي رغبة ولا تكشف عن عزم في التغيير والتبديل. ولكن الحياة ليس من طبعها الوقوف. فاما سير الى الامام ونماء واما تلكؤ ورجوع ثم فناء، وكأنها — الحياة — شعرت بأن ما نالته من تقدم يكاد يأتي عليه هذا الخمول والرغبة عن الخلق والابداع فجمعت قواها وحشدت جميع وسائلها ولم يمض حتى اسفر هذا الحشد والجمع عن خلق جديد له سمات راسخة من التخصص والتمايز الجنسي

وقد حققت الحياة هذه الخطوة، اوَّل ما حققتها، في الحيوان البروتوزووي المسمَّى «Eudorina». فقد اخذت خلايا هذا الحيوان تنقسم كل واحدة منها اقساماً صغيرة مختلفة بعضها كبير هادىء وبعضها الآخر صغير ولكنه جمُّ النشاط والحركة. وأبى هذا الحيوان ان يتوالد

الا اذا اتحد واحدٌ من هذه الاقسام الصغيرة النشيطة بواحد من الاقسام الاخرى الكبيرة الهادئة . وهنا اكتشفت الحياة الجنس ، وهنا فقط كانت بداءة الحب وثوائه التي نمت وأفرخت وأخرجت أعجب الأزهار والأثمار . وهنا اصبح مجال الاختيار واسعاً ومدى السعي كبيراً . وذلك ان هذه الحيوانات قامت تتغالب على فرصة الحياة والتناسل . فالضعيف منها فشل ومات وانقرض جنسه . والنشيط نجح وعاش وتكاثر ، وتعددت وسائل التضال على فرصة الحياة وتخليد الجنس ، فكانت حيناً قوة العضل وشدة الأسر وحيناً رخامة الصوت ورقة النغم وحيناً جمال الريش وبهجة الألوان ، وآناً لطف الحيلة وحسن التدبير وآونة شيئاً من هذا وذاك وأخرى منهُ جميعاً

وجاء الانسان في آخر الأزمان وجاءت معهُ غرائزه الأولى وعلى رأسها غريزة الجنس التي ما فتئت تدفعهُ الى طلب البقاء والخلود عن طريق اختلاف البنين والبنات . وكان الانسان في اول امره لا يختلف في هذا الدافع عن بقية الحيوان ، فكان اندفاع الجنسين بعضهما الى بعض لا يعدو هذه الحاجة الحسية التي تقضي في نهاية امرها الى ايجادها الذرية الجديدة ، وهذه الذرية الجديدة ، تعيد تمثيل الدور الذي مثله آباؤها وتذهب في سبيل الذاهبين الأولين . واذاً لا ريب ان وراء هذا التجاذب بين الجنسين في الانسان والحيوان شهوة اختلاف النسل وتخليد النوع

ولكن لسائل ان يسأل هنا : وماذا كانت فائدة هذا الاختصاص والتمايز اللذين افضى اليهما التطوُّر وانفصال عوامل التذكير عن عوامل التأنيث اذ كان غرض الحياة ، وهو بقاء النوع وتخليد الجنس محققاً بالانقسام الذاتي الموصوف ؟ والجواب هو ما رأينا من ان الانقسام الذاتي أسفر عن فشل في عملية التطوُّر والنشوء حتى كاد يتعرض النوع ويبيد وان اتصال عوامل التذكير عن عوامل التأنيث ثم اتصالها بعدئذٍ أفضى الى إعادة النشاط والقوة الى جميع الاحياء . وهذا لا ريب ، يفسر لنا ما يقضي اليهِ الزواج بين الأقارب من ضعف ينتهي مع الزمن الى انقراض الجنس كله ، ويفسر لنا أيضاً زيادة النشاط والحيوية بين الاجناس المختلفة إذ يمتزج بعضها ببعض عن طريق التزاوج ، وهو يفسر لنا أيضاً معنى هذه المحرمات الجنسية التي فرضها الدين حيناً وفرضتها الشعوب على أنفسها أحياناً أخرى ، من تحريم التزاوج بين الأقارب او تقييدهُ بقيود تقلل من أذاه وتلطف من شره . ولعلَّ هذه الشعوب البلسفكية في بعض جزر المحيط التي رضيت ان تتحلل من جميع القيود بشأن الزواج وغدت من جراء ذلك بسبيل الزوال هي خير دعاية لهذه القيود الجنسية واكبر برهان على فضلها وصلاحها في معركة النزاع على البقاء

ولنعود الى سلسلة النشوء ، فنرى ، ولكن بعد الأنوف المؤلفة من الأجزاء ، إن الغريزة وما يصحبها من انجذاب الجنسين بعضهما الى بعض ، أصبحا حبًّا رفيعاً يملأ القلوب وينبل الشهوة ، فأصبحت الشهوة عاطفة والميل حبًّا والمادة شعراً والغريزة الطارئة هوىً خالداً . ولكن كيف حدث هذا وماذا ساعد عليه ؟ الجواب عن هذا يطول ، وانما يكفي أن نقول ان الانسان لما بدأ يتحضَّر ويتمدَّن رقَّ طبعه وتدمثت أخلاقه وانتظمت غرائزه ، فصار يعمد الى التعبير عن شهوته الجنسية بطريق مداور غير مباشر : فحل الرمز عنده محل التصريح والايماء محل الفضوح والروية محل الجموح ، وأدركت المرأة أنها كلما تمنعت وتعززت كانت أقرب الى القلوب وأحفز للنفوس على الهيام والتقديس ، وكانت أخيراً أنجح في الاختيار الذي يرفع مستوى الجنس بدل ان يوطئه ويغيه بدل ان يشينه . أدركت المرأة هذا بفطرتها وأدركه الرجل كذلك فراحت هي تحيط نفسها بهالة من الامتناع والطهر والعفاف . ولكن في الوقت نفسه لم تشأ ان توقف الرجل منها موقف اليأس ، فلوَّحت له بالنظرة الهائمة والشفة الباسمة واللون الزاهي والعطر الذكي والقفلة الخالية ، ان هناك مجالاً للمطاردة وميداناً للاقتناص ولسان حالها يقول : هيا اوتي أيها الرجل ماذا تستطيع وتتقن وماذا تظهر وتبطن من الخلال والصفات التي تساعد على بقاء الجنس وتجميل الحياة . وما يلبث الرجل ان يستجيب ويقدم وين يدي المرأة أحسن ما يملك ويستطيع . فهو حيناً يعرض عليها فراهة الشباب وقوة الرجولة ونبض القوة في ميادين اللعب وحلقات الصراع والملاكمة او في ميادين النضال والقتال ، وحيناً يعرض عليها المال وما وراء المال من قوة ومتاع للنفس والحس ، وآناً يقول الشعر وآونة ينحت الصخر واذا أعياه هذا او بعض هذا عمد الى الاغواء والسحر بالقفظ المصول والنظر المطال والآهة المقطوعة وخلاف هذه مما يصطنع البارعون في هذا الفن

وإذاً فأنت ترى لهذه العاطفة غير فضل تخليد الجنس ، فهي ترقق الشعور وترفع النفوس وتسمو بالفكر وتغري الناس بجلائل الاعمال ، وفي ظلها يزكو الشعر ويسمو الفن ويخلد الجمال في قصيدة او صورة او تمثال . ومن هنا ما ترى ونشهد من ان أعظم الأمم ما آتى جليلة في فنٍّ أو علم او حضارة هي هذه الأمم التي ارتفعت بغريزة الجنس عن مستوى المادة والحس الى مستوى الروح والنفس . ومن هنا ما نرى أيضاً من ان دور الانحطاط في كل أمة وشعب يبدأ حيث يبتذل الحب وتعمُّ الأباحية ويصل الناس الى درجة الشيوع الحيوانية : لقد أفل نجم الاغريق وغاب سعد الرومان وخيم ليل العرب حينما أخذ الحب (ان جاز ان ندعوه حبًّا) يعرض في الأسواق ويباع ويشترى كما تباع جميع السلع ، بدل ان يحفظ ويصان في القلوب وراء الصدور

فكتور هوجو

قصة حبه الاول

ورسائل غرامه

كتب فكتور هوجو في ديوانه اوراق الخريف مخاطباً « رسائل غرامه » فقال :

يا رسائل الشباب والفضيلة والحبّ
هوذا انت. قليحقق فؤادي ثانية
مستجياً ، اذ اجثو لاقرأك .
ولأستعد عمرك ثانية ، فأعود
صالحاً وراغداً ، كما كنت مرة . ثم دعني
أذرف الدمع لانني انقلبت غير ما كنت

كنت في الثامنة عشرة . ما أبهج أحلامي حينئذٍ !
كان الامل يغنّيني فيهز سريري كذباً وختلاً
وكان يتلألأ نوقي نجم لامع .
اما الآن فقلبي فقط يتنفس بذكرك
مع انني كنت حينئذٍ في منزلة ربّ طا . ولكن
الرجل الآن يذكر الطفل الذي كان .

يا زمان التأمل والقوة والرشاقة
كنت انتظر كل مساء حتى تمرّ بي ،
فأقبّل قفازها الواقع على الارض
كنت حينئذٍ آمل كلّ شيء من الحياة — الحب والشهرة والقوة
آه — ما السبيل لأعود قبّا نخوراً متسابياً
مؤمناً بكل ما هو تيّ !

هذه الرسائل — رسائل الشباب والغضبة والحب — مجموعة في كتاب يربي على مائتي صفحة. وكانت عروسة احلامه قد دمرت رسائلها اليه وانما احتفظت برسائله. تطالعها الآن فتطالع فيها عفة في عنف. وليونة في رزانة، إنها حافلة بآماله وعواطفه، بافراحه المنطلقة عفواً كأفراح الطفل وبانباء الحصار واساليه يتلوها العفو والغفران!

يبدو لك وانت تقرؤها انها لم تكتب ليقرأها احد الا مليكة قلبه. فهو في غير رسالة منها يتوسل اليها ان تحرقها فتيتها الادبية في الكشف عن نفس هوجو، اعظم من رسائل تكتب والغرض منها النشر، لان نفس هوجو في رسائله هذا مطلقة على سجيتها. وقلما يتاح ان يُرى غراماً كهذا الغرام. يتفتح كالزهرة الطاهرة ويبجس كالنبع الصافي فتراه وهو يتفتح وترافقهُ وهو يبجس مكشوفاً للعين في كل فور وفي كل غور

***

عرف فكتور اديل من ايام الطفولة لان صلة الجوار والصداقة كانت تربط اسرتي هوجو وفوشه، قبل ولادتهما. فنشأ اولاد الاسرتين وترعرعا معاً. وكانوا ينادون بعضهم بعضاً بضمير المفرد المخاطب. وهو بالفرنسية دليل على توثق الصلة ورفع الكلفة

وقد اشار فكتور هوجو الى انبثاق حبه الاول بالكلمات الآتية: «اراني نفسي ثانية، فتىً، تلميذ مدرسة، مرحاً لعوباً طادياً صارخاً مع اخوتي، في المرّ المخضرّ في حديقة البيت الذي قضيت فيه ايام الحداثة. ثم يقول: «كنت لا ازال صبيًّا، ولكن الاحلام كانت تراودني، والشهوة تملأ اعطافي». والى جانبه كانت فتاة «نجلاء العينين، كثة الشعر، حمراء البشرة، حمراء الشفتين، متوردة الخدين...»

«وكانت امّانا تقولان لنا انطلقا والعبا معاً. فكنا ننزهُ قبل ان نلعب فكنا نفضل ان نتحدث. وكنا من عمر واحد ولكننا لم نكن من جنس واحد. ومع ذلك ظللنا مدى سنة اخرى، ونحن رفيقان، بل لقد جرّبنا غير مرة «ان تتبيّن من منا اقوى من الآخر وأصلب عوداً. خطفت منها مرة اكبر تفاحة في البستان. وصفعتها اخرى لما رفضت ان تعطيني عشَّ عصفور. فأخذت تبكي فقلت: لا بأس لنذهب ونخبر والدتينا فتقولان ان كلينا اخطأ وكلتاهما تنتقد في قلبها ان ولدها كان على صواب»

«ولم يمضِ زمن طويل حتى صارت، اذا سرنا، تتكىء على ذراعي، فكنت احسّ بفخر عظيم. وينتابني شعور غريب. فكنا نمشي في رفق. ونتحدث في لطف. اسقطت منديلها مرة فلمستهُ فمست يدي يدها وشعرنا كلانا برعشة. فجعلت تكلم عن العصافير، والنجوم في الفضاء، وحمرة الشفق وراء الاشجار، ورفيقاتها في المدرسة، وملابسها. نحدثها حديثاً بريئاً عن امور عادية

ولكن خدود كلينا تورّدت لان الفتاة اصبحت صبيةً». واديل تؤيد في ما كتبته رواية فكتور.

في اغسطس سنة ١٨١٨ اضطرت اسرة هوجو ان تنتقل من دارها، لان معاش الوالد الجنرال، كان لا يكفي، لكي يحتفظ لزوجه وأولاده، بدار لها حديقة. فانتقلت الاسرة الى شقة في الدور الثالث من شارع بتي اوغسطان رقم ١٨

وكانت مدام هوجو، تذهب بعد العشاء، تزور صديقتها مدام فوشه. وكان ابناها يرافقانها في بعض هذه الزيارات. ويقول بواب «أوتل ده تولوز» — حيث كان يقطن المسيو فوشه — انه كان يرى اوجين وفكتور هوجو مع والدتهما قادمين لزيارة اسرة فوشه. وكادت هذه الزيارة تكون رتيبة كل ليلة من ليالي الشتاء في سنتي ١٨١٨—١٨١٩

كان الضجر يخيّم على هذه السهرات في الغالب. فقد كان المسيو فوشه ضيفاً عليلاً، فكان يأخذ كتبه ويتحي زاوية خاصة، ويفضل ان لا تتلقهُ ثرثرة الحديث. وكانت مدام فوشه هادئة الطبع، لا تميل الى الاستفاضة في الكلام فجعلت الصمت ديدنها رفقاً بزوجها. وكانت مدام هوجو نفسها تقطع عملها — الخياطة — فتأخذ قليلاً من النشوق وهو عمل كان المسيو فوشه نفسه لا يفتأ عنه. وكانت قد نبهت على ولديها اوجين وفكتور ان لا يتكلما الاّ اذا خوطبا إلاّ أن هذه السهرات كان لها اثر خاص في نفس الفتى فكتور. كان اثراً مبهماً يتعذر حتى على من كان مثله بارعاً في استعادة الذكريات وتحليلها، ان يحدده ويصفه. فكان اذا انتهى العشاء في داره، كفّا بالاسراع الى منزل مدام فوشه. فاذا كان شقيقه اوجين متأخراً استعجله. وكان في الشارع لا يعجبه البطء في السير، فاذا حال دون الذهاب الى «اوتل ده تولوز» حائل ما، كانت الدنيا تسودُّ في عينيه وتستولي الكآبة على نفسه

وهذه الرغبة في زيارة آل فوشه، لم تكن كلفاً منهُ بمراقبة نار الموقد، او البقاء جالساً على كرسي ساعتين متواليتين في غرفة يسودها الصمت، ولا يقطع صمتها في الغالب الاّ عطاس امه والمسيو فوشه بعد تناول النشوق، بل كان يكفيه ان يرى المسيو فوشه مكبًّا على كتبه، والسيدتان على عملهما، لانه كان يستطيع حينئذ، أن يحدق، ويطيل التحديق، في اديل

والراجح انهُ كان لا يدري، ما هذا الشعور الذي كان يضطرب به صدرهُ، ولكن احدى رسائله المكتوبة سنة ١٨٢٩ تعيّن لنا بالضبط اليوم الذي ازيح فيه الحائل الفاصل بين القلبين. كان ذلك يوم ٢٦ ابريل سنة ١٨١٩ وكان فكتور يومها في السابعة عشرة من عمره واديل في السادسة عشرة

كانت اديل أجرأ من فكتور، وأشد رغبة في الاستطلاع، فرغبت وهي فتاة، ان تتيقّن معنى هذا الغرام الصامت فقالت: «لا ريب عندي في انك تخفي أسراراً. أليس بينها سرٌّ يفوقها

جيداً ؟ » فاعترف ڤكتور بأن عنده أسراراً وان احدها يفوقها جمالاً . فصاحت أديل : وهذا هو حالي : تعال . تعال الآن اخلني على أهم أسرارك وأنا أطلعك على أهم أسراري . فقال ڤكتور: أهم أسراري اني أحبك . فردّدت اديل وسرّي العظيم هو اني أحبك ، وكأن كلامها كان صدىً لكلامه

وكذلك تحطّم الجليد بينهما — على ما يقول الفرنجة — ولكن حبهما كان معتدلاً ، فكأنهما وقد باح أحدهما للآخر بمكنون قلبه، وقفا امام هول الحب وعظمته وقفة المتعبد في هيكل تفخم

وقد قال ڤكتور في قصيدة يصف ذلك اليوم ، ان شفاههما الطاهرة لم تتلفظ بعبارات الغرام وانهما ما كانا يملكان الا التفوّه بكلمة واحدة

***

تبادلا بعد ذلك بعض الرسائل أحياناً إلاّ أنها كانت في الغالب « قصيرة فاترة » ولكنّ هذه الرسائل لم تحفظ . ثم جاء الصيف ، وذهبت أسرة فوشه لتصطاف في إسي في ضواحي باريس . فكان ذلك باعثاً على الكآبة تستولي على نفس ڤكتور . وقد حاول عبثاً ان يقنع نفسهُ بأن المرحلة الى إسي كالمرحلة الى « أوتل ده تولوز » . ولكن الزيارات اليومية كانت متعذرة

فلما عاد الخريف عادت أسرة فوشه الى باريس ، وكان الليل اللطيف قد تحول في صدر ڤكتور الى شعلة لا تنطفىء على ما قال في قصيدة له في أحد دواوينه[1] . بل ان الحبّ كان قد أخذ يملك على ڤكتور كل ناحية من نواحي شعوره ، وتغلغل في كل جانب من جوانب حياته

وبعيد عودة آل فوشه من إسّي في خريف سنة ١٨١٩ انتظم تبادل الرسائل بين ڤكتور واديل . وكان ڤكتور قد شرح التردد والحين ، وأصبح عاشقاً جريئاً ، فصار يطلب الى اديل ان توافيهُ في مواعيد معينة واماكن معينة ، فكانت تلبي طلبهُ . وكانت حديقة « الاوتل ده تولوز » احد اماكن الاجتماع ، فكانت اديل اذا غابت والدتها ، تتسلّ الى الحديقة لمقابلة ڤكتور المنتظر في « ظلال اشجار الكستناء » . او كانت اديل تذهب احياناً الى السوق بدلاً من والدتها وبعد ان تبتاع ماذهبت له ، تسرع الى مقابلة حبيبها في احد الشوارع الهادئة . ولما تحسّنت صحة السيو فوشه صار يسرّهُ استقبال اصحابه في المساء ، وكثيراً ماكان بين الزوّار صويحبات اديل واصحابها . فكان ڤكتور يجتمع باديل ويتحدث اليها ، ولكن الاجتماع كان بحكم الطبع قصيراً ، والحديث مقتضباً فكان لا بدّ من اتمام ذلك التبادل كتابةً

***

لم تحفظ رسائل ڤكتور الاولى ولكنها في الراجح لا تختلف عن معظم الرسائل التي حفظت.

(1) Odes et Ballades

اننا نتبيّن في رسائله ، ان فكتور كان وهو في السابعة عشرة من العمر يفكر تفكير الرجال . فهو واثق بنفسه ، واثق باخلاصه ، واثق بحبه وشرف اغراضه . ثم انهُ لا يرتاب اقل ارتياب، في شجاعته وقيامه على عهد الوفاء . فاذا كان لا مفرَّ من الانتظار فانهُ ينتظر . واذا قامت في سبيلها العقبات ، فانهُ يتخطّاها . انهُ لا يسلّم بان هناك شيئاً مستحيلاً . وهو يحسب اديل زوجتهُ ، لذلك تراهُ يجرؤ على توقيع معظم رسائله اليها بكلمة « زوجك » . ولكن اديل لا تزال طفلة . هي ذكية الفؤاد ، نبيلة الشعور ، ولكن قلبها قلب طفل . انها بريئة ، حنونة ، فتردُّ على حبه الناضج حبًّا طفلا

ولكن الى ابن يفضي حب صغيرين كفكتور واديل في سنهما واحوالهما ؟ لا ريب في ان الوالدين يفصلون بينهما عندما يطوف الريب باذهانهم . لذلك اتفق الحبيبان ان يتعاشيا عن تبادل الحديث الاّ اذا كانا منفردين . وان يتظاهرا في حضور الناس ، بان احدهما لا يهمُّ الآخر ولا يعنى به

ولكن هذا التظاهر كان يؤلم اديل . كان فكتور لا يزال يطيع امه كأنهُ لا يزال في العاشرة من عمره ، وكانت هي تحسبهُ طفلا فلم تتصوَّر انهُ في هذه السن يمكن ان يقع في شرك الغرام. الاّ ان أم اديل كانت أقوى ملاحظة وأنفذ بصيرة من صاحبتها ، فظنت انها رأت غير مرة ، مايدلُّ على تحاب اديل وفكتور ، ولكنها حسبت ذلك من نوازع الحداثة البريئة ومع ذلك لم تلن في مراقبة بنتها ، وفي توجيه الاسئلة اليها ، وتوبيخها احياناً ، وكان كل هذا يتم اديل ، فتبوح بسرها الى فكتور ، وأحياناً تلومه عليه او يفجر طبعها الناشي بالتأنيب احياناً اخرى . ولكنها كانت ، اذا رأتهُ كئيباً كاسف البال وبدا عليه انهُ يظنُّ انها لا تحبه ، تسرع الى طلب العفو والغفران ، لانهُ كان كما قال في شعره في منزلة ربٍّ لها

ثم اخذت شهرته الشعرية تذيع ، وبدأ اسمه يلمع في سماء الادب فدعاه شاتوبريان « الطفل العلوي » ، وجعلت الصالونات الادبية تتحدث ببعض قصائده ، ومنحتهُ اكاديمية الالعاب الزهرية في تولوز جائزتين من جوائزها الاولى على قصيدتين قدمهما اليها

ولما كانت رسائل فكتور التي كتبت سنة ١٨١٩ لم تحفظ ، فأول شاهد على حبه ، منظوم في قصيدة له عنوانها « الزفرة الاولى » نظمت في شهر دسمبر من تلك السنة . فلما قدم هذه القصيدة الى اديل ، طالباً اليها ان تقرأها على حدة ، لانها نظمت لها خاصة ، طفح كأس صباها بالغبطة . وكان في القصيدة كثير من انغام الحزن والقنوط . ولكنها قصيدة ما أجملها ، في نظر الفتاة . واذ تحدث الشاعر في قصيدته ، عن يوم عماته ، سأل اديل عما يجيز حبه ، ووفاءه فوعدته باثني عشرة قبلة !

ولكن هذه القصائد وهذه القبلات لم تلبث حتى اصبحت باعثاً من بواعث الكدر والانزعاج

قلنا انهُ كان لاديل صويحبات ، وليس من الطبيعي ان تتلقى فتاة قصيدة بارعة كتبت لها خاصة ، من دون ان تريها لاحدى صويحباتها على الاقل ،فاذا ارتها اياها ، فكيف يسعها ان لا تقول ان فتاة القصيدة انما هي نفسها — اديل فوشيه ، حبيبة الشاعر ؟ ! ولا ريب في ان احدى صويحباتها سألتها : ولكن هل تحبينهُ : فتجيب — أيسعني إلاَّ أحبه — وهل يحب لهُ يحبك — كيف أستطيع أن أخفيه . وعندها يرجح انها باحت لتلك الصويحبة بالقبلات التي دفعتها ثمناً لتلك القصيدة وجزاء لذلك الوفاء ! فتصبح صاحبتها في شيء من الذعر

— ولكنه لا يسعهُ ان يحترمك ما زلت لا تحترمين نفسك

كانت أمها قد حذَّرتها من كل هذا فقالت لها : احذري يا بنيتي ، اذا قال لك رجل انهُ يحبك ، وكنتِ على جانب من الضعف ،فلا يمضي وقت طويل حتى يزول ما يكنهُ لك من الاحترام

أمضّها الشك . هل التسليم بالحبّ يفضي الى فقدان احترام الحبيب ؟ اذن حبيبها يحتقرها ! وكيف تستطيع ان تصبر على احتقاره اياها ؟ سألتهُ في ذلك ، والألم يفطر قلبها « أصحيح انك تحتقرني ؟ هل يمكن ان تحتقرني ؟ » فأنكر ذلك ، واعترض عليه ، وغضب في انكاره واحتجاجه ، وجدَّد عهود الحب والوفاء ، وأتى ببراهين حبه واخلاصه . ولكن الريب في ذهنها اصبح فكرة سائدة . وكثيراً ما تعود الى هذا الموضوع في رسائلها . نعم اننا لا نملك رسائلها ، ولكننا نملك جوابات ڤكتور. كيف يستطيع ان يقتمها ؟ فليس الاحترام والاجلال كل ما في نفسه ، بل هي العبادة ! انهُ يحبها جاثياً . وبجرد تطويتها بذراعيها ، والفوز منها بوعد بقبلة ، هو كل ما يطلبه منها وهو كل سعادته . وقد كانت اديل جديرة بهذا . فقد كانت وهي في السادسة عشرة صبية بارعة الجمال ، سمراء اللون ، سوداء الشعر ، مقتطرة الحواجب ،دقيقة الانف فأقامها ڤكتور في هيكل افكاره على مذبح وجثا امامه عابداً متخشعاً . بل ان عبقريته الشعرية انحنت اجلالاً امام عبقريّ جمالها ، بدعة وخشوع . قد تكون زوجه في المستقبل مع انهُ لايجرؤ على تصور هذا . ولكن اذا اصبحت زوج آخر ، فانهُ يموت ، لانه لا يتحمَّل ذلك . وفكرة الموت هذه ، كانت برهاناً لهُ على حبه لها ، فرسخت في ذهنه ، وكثيراً ما رددها ، في اشكال مختلفة في رسائل غرامه ، وكان لها وقع عظيم في نفس حبيبته

وضع ڤكتور كلّ شيء عند اقدام اديل او تحت اقدامها. فلست تجده يذكر في رسائله شيئاً من كتاباته ، او ما اصابهُ من النجاح الادبي او شهرتهُ الآخذة في الذيوع ، واذا اشار الى ذلك فانما يذكره لكي يؤكد لها ، ان كل ذلك انما هو لاجلها ، ولها ، وانما هي صاحبة الوحي وينبوع الالهام . فالموضوع الوحيد الذي تدور عليه الرسائل هو هذا الحب — الحب دون غيره من الموضوعات ، ولذلك سوف تبقى رسائل غرام هوجو مثالاً فذّاً نقيًّا للحب السامي

اسرار اللون

في حياة النبات والحيوان

المادتان الخضراء والصفراء في النبات والحمراء في الدم

تسيغ الطبيعة على الكائنات من نبات وحيوان ألواناً تفتن الالباب بجمالها وتحير العقول بأسرارها . ففي حدائق الازهار تجد الاديم مكسوًّا ببساط سندسي يرتاح اليه البصر وتقوم في جنباتها شجيرات متفتحة النوّار سحرية الالوان فواحة العبير . وفي حديقة الحيوانات بالجيزة طيور تستوقف النظر والذهن بألوان ريشها بين أخضر وأحمر وأصفر . فما سر هذه الالوان وهل في دراستها سبيل الى فهم ناحية من لغز الحياة ؟

إن مباحث علماء الكيمياء الحيوية الحديثة في هذا الموضوع تشير الى اننا على عتبة انقلاب خطير الشأن في فهم بعض اسرار الحياة عن طريق فهم سر التلوين في الطبيعة . ولا يستبعد ان يفضي هذا الفهم الى فوائد عملية جليلة الشأن في توفير اسباب الصحة ومواد الغذاء والوقود

فالمادة الخضراء في النبات، وهي المعروفة باسم الكلوروفيل في اللغات الاجنبية (وقد اقترح لها مجمع فؤاد الاول للغة العربية لفظ اليخضور) تحتوي في تركيبها الكيمياوي وطريقة تركيبها للنشاء والسكر على اسرار اذا استطاع العلماء أن ينفذوا اليها ، مكنتهم من مجاراة الطبيعة في صنع مواد الغذاء والوقود على أهون سبيل وبأيسر نفقة

ثم ان اليخضور يهم الاطباء وعلماء الكيمياء الحيوية لأن تركيب جزيئه قريب الشبه بتركيب جزيء مادة أخرى، لاغنى عنها للحياة وهي المادة الحمراء وهو المادة الحمراء التي تجري في الدم فتدعى اليحمور ومن معانيه في اللغة الاحمر . فكل كشف جديد في معرفة سرّ من اسرار المادة الحمراء يسدي خدمة جليلة الى الباحثين في اسرار الاخرى

وقراء المقتطف يذكرون ان العالم الالماني هانس فيشر Fischer منح جائزة نوبل الكيمياوية سنة ١٩٣٠ لنجاحه في تركيب مادة الهياتين — وهي المادة الحمراء التي في كريات الدم الحمر في الحيوان — بالتركيب الصناعي . ولكنهم قد لا يعلمون أن فيشر نفسه من أدق الباحثين وأرسخهم قدماً في دراسة اليخضور كذلك

ومما لاريب فيه ان كثيراً من الحقائق التي توصل العلماء الى معرفتها عن طبائع الطيائر انما تتيح لهم لان الباحثين في طبائع الخضور مهدوا لهم السبيل . وليست الشقة بين الوقوف على اسرار الخضور وطبائعه وفهم الامراض الناشئة عنه بالشقة البعيدة . ثم هناك اللون الاصفر ، وهو عادة من الالوان التي لا يقام لها وزن كبير في خصائص الاجسام الحية واسرار حياتها ، وذلك لان لون الخضور الاخضر في النبات يغلب عليه ويحجبه عن الانظار . ولكن شركة كوداك تمكنت من صنع مصفاة لونية ، تستطيع ان تحجب الاشعة الخضر في ضوء ما ، وتأذن لسائر الاشعة في ذلك الضوء في المرور من خلالها . فاذا نظرت الى غابة خضراء ، او الى حقل سندسي البساط من خلال هذه المصفاة ، رأيته أصفر فاقعاً يخالط صفرته قليل من اللون البرتقالي والاحمر . والواقع ان البحث أثبت وجود اللون الاصفر والاصفر المحمر في كل خلية نباتية . والدليل الحاسم على ذلك ان الطيارين الحربيين يميزون بين الاخضر السندسي في الحقل والاشياء المدهونة باللون الاخضر باستعمال المصفاة اللونية فيرون الحقل أصفر والاجسام المدهونة باللون الاخضر خضراء قاتمة . وفائدة هذا التمييز في الاعمال الحربية لا تخفى

ليس ثمة ريب في ان دراسة اللون الاصفر في الخلايا النباتية قد افضى الى فوائد عملية جليلة القدر . وذلك لأن بين الاجسام الصفر في خلايا النبات مواد تعرف باسم « الكاروتينويد » Carotenoids وهي مصدر غني بفيتامين ﻫ واذا شئنا ان نقيس بالمال قيمة الصحة التي يجنيها الناس من استعمال هذا الفيتامين تعذر ذلك علينا . بل يضاف الى ذلك ان هناك فريقاً من العلماء يذهب الى أن هذا الفيتامين عامل ذو شأن في إطالة مدى الحياة الانسانية

***

اللون الاخضر واسع الانتشار في الطبيعة . وفي سعة انتشاره دليل على ان « الخضور » عامل اساسي من عوامل الحياة على سطح الكرة الارضية مهما يكن القالب الذي تفرغ فيه الحياة . وسبب ذلك ان الخضور هو المادة التي تعتمد عليها الطبيعة في تحويل طاقة الشمس الى طاقة الحياة . ولولاه لما كان لنا غذاء ولا لحم ولا قمح ولا ناس

***

يعرف فعل تركيب النشا والسكر في اجسام النبات بوساطة الخضور بفعل التركيب الضوئي Photosynthesis وطريقته ان يمتص النبات الماء من التربة ثم يقتنص الطاقة من اشعة الشمس ، فيحدث التفاعل بين جزيء الماء وجزيء ثاني اكسيد الكربون فيتولد النشاء والسكر وجزيئاتهما غنية بطاقة الحرارة ، ويطلق الاكسجين نتيجة لهذا التفاعل حراً يستنشقه الأحياء . ولولا

فعل التركيب الضوئي . لقلَّ مقدار الاكسجين في الهواء بتثبيته في المركبات التي يدخل في تركيبها ولمجاء زمن تزول فيه الحياة عما نعرفها ، من سطح الارض

***

بعد ذلك يتحوَّل السكر رويداً رويداً الى موادَّ اخرى . فهو يتحوَّل بالتخمير كحولاً ومنهُ تتولَّد المواد التي يصنع منها الجليسرين والزيوت والشحوم والبروتينات والفيتامينات والادهان الخضر والحمر والصفر . جميع هذه المواد ترتدُّ الى السكر المصنوع بطريقة التركيب الضوئي من الماء وثاني اكسيد الكربون وطاقة الشمس بوساطة اليخضور . وليس في أرقى مصانع العالم الآن ما يجاري فعل التركيب الضوئي ، في توليد هذه المواد

وقد دلَّ البحث على ان اليخضور يخضوران في الحقيقة، يتشابه جزيئاهما في تركيبها وقد وسم أحدهما بحرف الألف فعرفا باسم يخضور (ا) والثاني بحرف الباء بيخضور (ب) . فاذا استخلص الاول وبلور كان أزرق سوادًّا . واذا حلَّ في الكحول كان أزرق مخضارًّا . أما الثاني فلون بلوراته أخضر مسوادٌّ ومحلولهُ الكحولي أخضر صافٍ. والاول يتحول الى الثاني بازالة ذرتين من ذرَّات الايدروجين من جزيئهِ واحلال ذرة أكسجين محلها . وقد تبين علماء الكيمياء الحيوية ان اليخضورين متلازمان في خلية النبات ، فكلٌّ منهما عامل لا يستغنى عنهُ في فعل التركيب الضوئي

وجزيء اليخضور نسيج معقد من ذرَّات الكربون والايدروجين والاكسجين والنروجين . فاذا كان هذا الجزيء مشتركاً في فعل التركيب الضوئي ، شوهدت في وسطهِ ذرَّة مغنيسيوم . وجزيء الهيماتين (اليحمور) كذلك نسيج معقد من ذرَّات الكربون والايدروجين والاكسجين . ولكنهُ يختلف عن صنوه جزيء اليخضور في انهُ اذا كان جزيء الهيماتين مشتركاً في فعل نقل الاكسجين ، وجدت في مركز الجزيء ذرة حديد ، يقابلها في جزيء اليخضور ذرة مغنيسيوم

ولا يخفى أن الغرض الاول من الهيماتين هو نقل الاكسجين في أجسام الاحياء . ولذلك يصاب المصابون بفقر الدم (ومن أعراضهِ نقص الكريات الحمر المحتوية على الهيماتين في الدم) بضيق النفس لان قلة الكريات الحمر تحول دون حصول انساج الجسم على كفايتها من الاكسجين . والشحوب الذي يطرأ وجه المصاب بالانيميا دليل على ان الجسم في حاجة الى الحديد مفرغاً في قالب الهيماتين

أما الهيموغلوبين فهو مادة بروتينية يطلق بكل جزيء من جزيئاتها أربعة جزيئات من

الهيماتين وهذه المادة هي قوام الكريات الحمر في الدم . وهذه الكريات تمتص الاكسجين من الهواء من خلال انسجة الرئتين الرقيقة وتحمله في مجرى الدم الى خلايا الانسجة فتأخذه منها وتستعمله لتوليد الحرارة اللازمة لافعال الجسم الحي . وترتد الكريات الحمر مثقلة بنتيجة الاحتراق — وهي ثاني اكسيد الكربون — فتطلقها من خلال نسج الرئتين وتمتص الاكسجين بدلاً منها . ولذلك يحتاج الجسم الى تنفس الهواء الطلق التي لكي يأخذ منه اكبر قدر من الاكسجين يحتاج اليه ، والى عدد معين من الكريات الحمر في كل سنتمتر مكعب من الدم حتى يستطيع ان يوصل الى خلايا انسجته المختلفة القدر اللازم لها من الاكسجين

***

والاسلوب الكيميائي الذي يتم به فعل نقل الاكسجين من الرئتين الى خلايا الانسجة ، قوامه ان ذرة الحديد في مركز جزيء الهيماتين متصفة بالقدرة على اجتذاب ذرة اكسجين اليها والاحتفاظ بها الى ان يحين موعد اطلاقها

ولما كان جزيء الهيموغلوبين مرتبطاً باربعة جزيئات من الهيماتين ، ففي قدرة جزيء الهيموغلوبين ان يجتذب اربعة جزيئات من الاكسجين . وكل كرية من كريات الدم الحمر تحتوي على عدد كبير من جزيئات الهيموغلوبين ففي وسعها ان تحمل من الرئتين الى خلايا الانسجة عدداً كبيراً من ذرات الاكسجين . وعلى ذلك يكون فعل نقل الاكسجين من الرئتين الى خلايا الانسجة فعلاً دقيقاً

وليس ثمة عالم يظن ان الشبه بين الحضور والحمور جاء اتفاقاً . والرأي الغالب ان الطبيعة ادركت في عصر ماضٍ بعيد ، عند ما كانت الحياة لا تزال في الدرجات الاولى من سلم ارتقائها ، فائدة ابدال ذرة المغنيسيوم بذرة الحديد في جزيء الكلوروفيل فصار في وسع ذلك الجزيء — وقد صار مركزه ذرة حديد — ان ينقل الاكسجين ، وكذلك مهدت الطريق لظهور الحيوان الاحمر الدم ، الذي نشأت منه الحيوانات العليا

وهذا الرأي ليس تصوراً مجرداً بل ان نتائج الباحث الحديثة تؤيده . فالانسان في أشد الحاجة الى مقادير يسيرة جداً من النحاس والمنغنيس في جسمه

وقد ثبت ان من شأن هذين العنصرين ان يؤثرا في تركيب الهيموغلوبين في مراكز معينة في النظام . ثم ظهر ان تركيب الكلوروفيل لا يتم في خلايا ورق النبات اذا خلا الورق من مقادير يسيرة جداً من النحاس والمنغنيس

والبحث في سر الالوان في الطبيعة أفضى الى كشف من أخطر الكشوف شأناً في علوم

الاحياء . ولملخص هذا الكشف ان مادة الهماتين موجودة في كل جسم حيّ في البكتريا والشجرة الباردة والمؤارة (الاميبا) والانسان . ومن الطبيعي ان يسأل القارىء لماذا لا يغلب اللون الاحمر على جميع الاحياء . والردّ على ذلك ان مقادير هذه المادة في معظم الاحياء يسيرة جدًّا لا تتبين العين لونها ، ولكن المطياف جهاز دقيق الاحساس وبه استدل العلماء على وجود الهماتين في جميع الاحياء

ومن الغريب ما كشفهُ البحث من ان الهماتين في الاحياء الدنية يفعل فيها فعلهُ في دم الانسان اي ينقل الاكسجين . ولكن الاسلوب يختلف قليلاً في الحالين . فجزيئات الهماتين تتناول الاكسجين من جزيئات أخرى وتنقلها الى جزيئات في حاجة اليهِ فيحدث تفاعل الاحتراق (الأكسدة) فتطلق قدر من الطاقة يمكن الجسم الحي من القيام ببعض أفعاله

وبذلك يصحُّ القول ان مادة اللون الاحمر في الدم كانت سبيلاً الى فهم سرٍّ من أسرار الحياة العويصة . واذا سار العلماء على الطريق السويّ في استيضاح هذا السر لم يقتصر فهمهم على فهم النشاط الحيوي في الكائنات بل تعداه الى فهم الاساليب التي يولد بها النور البارد مثلاً الذي يشبه نور الحباحب والاحياء المائية المضيئة ، فيوفر بذلك نحو ٩٠ في المائة من الطاقة التي ينفقها لتوليد الضوء الكهربائي

***

قلنا ان للون الاصفر شأناً عظيماً في فهم ناحية من أسرار الحياة . وقد تجلّت منزلتهُ هذه في دراسة الجزر . فمادة الملوّنة المستخرجة من الجزر تعرف باسم كاروتينويد Carotenoid وقد ظلّت هذه المادة المصدر الرئيسي لفيتامين A حتى تمكن الكيميائي الحيوي Kuhn من تركيبه بالتأليف الكيميائي

استخرجت مادة الجزر الملونة من جذور الجزر سنة ١٩٣١ ودعيت كاروتين ومن المسلَّم به الآن انها خليط من ثلاث مواد اسماؤها كاروتين الفا وبيتا وجمًّا فاذا حللت تحوَّل اللون الاحمر الى اصفر كصفار الازهار الصفر ومُح البيض ولكن هذا لا يعني ان كلَّ مادة صفراء في النبات كاروتينويد ولا ان جميع المواد المعروفة باسم كارتينويد صفراء

غير ان اسرار هذه المواد لم تفهم إلاَّ بعد ان كشف ترتيب الذرات في جزيئاتها وبعد بحث دقيق في هذه الناحية ظهر ان جزيئها توامهُ حلقة من ذرات الكربون والايدروجين تتدلى منها سلسلة من ذرات الكربون والايدروجين واحياناً من ذرات الاكسجين . ويلوح ان لطول السلسلة وكيفية ارتباط الذرات بعضها ببعض صلة باللون . واللون الاصفر هو الغالب فاذا حدث تغيير يسير في مواقع الذرات وفي طول السلسلة تحول لون الجزيء الى برتقالي او

أحمر او الى أحمر بنفسجي او الى أزرق قاتم وهو نادر . فالمادة الحمراء في البطيخ والطماطم كاروتينويد قريبة الصلة بالمادة الصفراء الكاروتينويدية التي في الازهار الصفر . وفيتامين د كاروتينويد ايضاً ولكن لا لون له ولا نعلم سبب ذلك

***

في الحيوانات القفارية تتحول احدى الكاروتينات الثلاث الى فيتامين د — ويلوح ان الكبد هي مقر هذا التحول — من جزيء اصفر الى جزيء لا لون له . وهذه الحيوانات لا تستطيع ان تحصل على المادة التي تحولها الى فيتامين إلا من نبات يصنع هذه المادة الصفراء

ولا يخفى ان نقص فيتامين د في جسم حيوان ما يفضي الى ضعف مقاومة المرض وتكس البشرة والاغشية المخاطية ، وضعف البصر في الضوء الخافت ، وجفاف العينين وضعفها واخيراً فقد البصر

والاتصال بين الحيوان والنبات لا يجب ان يكون مباشراً . فقد يأكل الحيوان مادة حيوان آخر تغذّى بمادة نباتية فيها الكاروتينويد . و « زيت السمك » من هذا القبيل

ولا يخفى ان المادة الصفراء في الفواكه والخضر والازهار الصفر هي كاروتينويدات ولكن هنالك مادة صفراء اخرى مثل فيتامين ب٢ تدعى (ريبوفلافين) وهي تستخرج من اللبن . والرأي ان هذه المادة الصفراء او هذا الفيتامين يطيل مدى الحياة اذ ثبت ان حياة الفأر والجرذ تطول متى كثرت هذه المادة في غذائها

واللون الاصفر يعود بنا الى اللون الاحمر . فقد ظهر ان الريبوفلافين — الاصفر — صلة بين الفيتامينات والانزيمات . والانزيمات كما لا يخفى من العوامل الفعالة في زيادة النشاط الحيوي . فاذا ارتبط الريبوفلافين بجزيئات البروتينات الكبيرة تمكنها من ان تزيد نشاط التفاعل الحيوي . واذن فالريبوفلافين الاصفر هو زميل الهيماتين الأحمر في السيطرة على النشاط الحيوي

***

ما أحكم الحلقة التي صنعها الطبيعة ! هو ذا فيتامين د المتولد من المادة الصفراء لا غنى عنه للبصر السليم ، لأنهُ مادة اساسية في شبكية العين — لوحتها الحساسة . وهذا الأحمر الذي لا يستغني عنهُ الجسم متولد من مخضور الورقة الخضراء . ثم هو ذا الهيماتين والريبوفلافين يجهزان الجسم الحي بما يمكنهُ من تحطيم المواد التي ينشها المخضور فيولد من تحطيمها طاقة لا يستغني عنها الجسم الحي في افعاله الحيوية !

المبحث العاشر

خليل مطران

شاعر العربية الإبداعي

الدكتور اسماعيل احمد ادهم
عضو اكاديمية العلوم الروسية ووكيل المعهد
الروسي للدراسات الاسلامية

آثار مطران

(توطئة) : لم تخرج بعد مجموعة كاملة لآثار الخليل رغم شهرته العريضة في العالم العربي ، ورغم كونه في الكهولة من حياته لجهاده الأدبي طيلة نصف قرن تقريباً ، واشتراكه الفعال في نهضة الأدب العربي الحديث ، لم تنشر صحائفها جميعاً بعد . والقليل الذي نشر منها وطبع ، نفدت نسخه في حينه ، وأصبح اليوم جلّ آثاره نادر الوجود ، حتى ان بعضها لا نصيبَ في دور الكتب العامة كدار كتب « بلدية الاسكندرية » فانها لا تحتوي على نسخة من ترجمة الخليل لمسرحية « عطيل » او « السيد » . كذلك لا تحتوي على نسخة من قصة « القضاء والقدر » التي نقلها الخليل عن قصة أفرنجية ، ولا كتاب « الموجز في علم الاقتصاد » الذي ترجمه عن الفرنسية بالاشتراك مع المرحوم حافظ بك ابراهيم . على ان هذه الكتب بعد ذلك لو أصبحا محفوظة في خزائن « دار الكتب المصرية » وفي بعض الخزائن الخاصة ، فهي في حالة لا تسمح لها بالتداول وبالتالي بالذيوع والانتشار . وهذا ما يمكن قوله بخصوص الجزء الأول من « ديوان الخليل » النادر الوجود الآن ، وبخصوص بعض آثاره الأخرى ، نخص منها بالذكر ترجمته لمسرحية « تاجر البندقية » وكتابه « مرآة الأيام في التاريخ العام »، والمجموعة التي جمعها من مراثي الشعراء لمحمود سامي البارودي وبشارة تقلا باشا وترجمته لقصة « السيد » احدى روائع كورنيل العظيم والاخيرة وان كانت محفوظة في خزائن وزارة المعارف المصرية — بعد ان طبعتها الوزارة لحسابها الخاص — الاّ انهُ لا سبيل الى الحصول عليها ، ولو بذل الجهد الشديد [1]

---

(١) هامش الصحافي العجوز بالاهرام — عدد ١٩٨١١

ومن شأن هذه الندرة ان تمد بين ابناء الجيل الذي نشأ بعد الحرب العالمية وبين هذه الآثار ، كما كانت بدورها سبباً من الأسباب التي وقفت بعد الحرب في وجه الاعتراف بما للخليل من الفضل على حركة التجديد في الأدب العربي[1] . ولم يكن ما نشر له في الصحف والمجلات في الحين بعد الحين كافياً لانشاء فكرة واضحة بينة المعالم والخطوط عنه

فاذا اخذنا موضع النظر آثار الخليل ، وجدنا ان جلها لم ينشر ، فمن ثماني مسرحيات او عشر ترجمها عن « وليم شكسبير » لم يقدم للطبع غير ثلاث : « عطيل » و « تاجر البندقية » و « هاملت » ولم يقدر للاخيرة الظهور ، كذلك من بين ترجماته لآثار « كورنيل » و « راسين » لم يطبع له غير رواية « السيد » أخرجتها له وزارة المعارف المصرية . ومن منظوماته لم ينشر له مجموعاً في ديوان غير الشعر الذي نظمه في الفترة التي جاءت بين سهل (يناير) سنة ١٨٩٤ وربيع (مارس) سنة ١٩٠٨ . وما جاء بعد ذلك التاريخ الى اليوم ، مما يشكل ديوان شعر في ثلاثة أضعاف حجم المجموعة الشعرية التي خرجت له ، لم ينشر على الناس مجموعاً في ديوان . هذا فضلاً عن أن هنالك قصة او قصتين ، ومسرحية مؤلفة — على ما يروى — لم تقدم للطبع . وان كانت قد سبت كلها في قالبها ، وروجعت المراجعة التي تؤهل تقديمها للطباعة . والى جانب جميع هذه الآثار ، هنالك طائفة غير يسيرة من آثار الرجل النثرية وكتاباته الأدبية منشورة في صفحات المجلات والصحف ، ولا شك ان جميع هذه المواد لو جمعت ونظمت وروجعت ثم أخرجت للناس ، لكان من ذلك ثروة كبيرة للادب العربي الحديث ومغنم للفن الرفيع . وأظن ان هذا سيكون محل نظر محبي أدب الخليل — وهم كثر — من بين أبناء هذا الجيل

— ١ —

كان كتاب « مرآة الايام في التاريخ العام » أول أثر من آثار خليل مطران أخرج للناس وقد جاء في جزءين كبيرين ، انتهى فيها المؤلف الى أخبار أسوج (السويد) ونروج (النرويج) حتى سنة ١٨٩٦ . وخرج الجزء الأول من هذا الكتاب سنة ١٨٩٧ عن مطبعة البيان في القاهرة في ٤٠٣ صفحات منها ٣٨٢ متناً والباقي فهارس (مسارد : عن بشر فارس) لمادة الكتاب. اما الجزء الثاني فقد خرج سنة ١٩٠٥ عن مطبعة الجوائب المصرية في ٤٢١ صفحة منها ٤١٢ متناً والباقي مسارد لمادة المتن . وخرج مع الجزء الثاني ، الأول في نفس التاريخ في طبعة ثانية. ومما تجدر الاشارة اليه هنا ، أن الطبعة الثانية للجزء الأول خرجت صورة طبق الطبعة الأولى في صفحاتها وموضوعها وتوزيع الموضوع على الصفحات

والكتاب مصدر بقصيدة توجه فيها المؤلف (الناظم) الى خديو مصر عباس الثاني ،

(١) انظر الترجمة من — المجلد الخامس — من هذه الموسوعة

مقدماً الكتاب الى سموه. وهذه القصيدة تجدها ايضاً في الديوان (ديوان الخليل ٢٦٦/١٢٦٦)، وهي من بحر الطويل . ولكنها في الديوان تحمل تاريخاً يجعلها من آثار شهر يونيو سنة ١٩٠٦ (الديوان ٢٦٧ س ٢٠) . على أنا بعد ذلك نجد ان كتاب « مرآة الأيام » صدر عام ١٩٠٥ ، والقصيدة منشورة في صدره ، وهذا يرجع بتاريخ نظم القصيدة الى سنة ١٩٠٥، أعني الى قبل التاريخ الذي وضعهُ لها الناظم . وعلى هذا فيكون الوضع الطبيعي لهذه القصيدة بين قصائد الديوان ومنظوماته فيما بين قصيدتي « الطفل الطاهر » (الديوان ٢٤٢/٢٥٠) و « قحة زهر » (الديوان ٢٥١/٢٥٤) . والقصيدة في ثلاثين بيتاً منها أبيات يمكن ان تجري مجرى الأمثال السائرة لما فيها من عمق الفكرة وسداد النظرة والحكمة البعيدة (الديوان ٢٦٧ : ١١) . وطريقة الناظم في هذه القصيدة ظاهرة بوضوح في مخاطبة خديو مصر بلا تحفظ ، وان كان في أدب يليق بمقام امير البلاد

اما الكتاب فمن فن التاريخ ... ، وموضوعه التاريخ العام. وفي صفحات جزء به نرى الخليل يلخص في شيء من الاقتضاب الظاهر الآراء الدائمة (المشهورة) في تواريخ الأمم، بدون اتخاذه قاعدة يفحص على أساسها واستناداً اليها الحوادث والواقعات حتى يتميز الجانب الاسطوري من التاريخ عن الجانب الحقيقي

مثال ذلك كلام المؤلف عن العرب الجاهليين، فهو في العموم تلخيص لما هو شائع عن تاريخ الجاهلية عند كتّاب العرب الاخباريين الذين وصلتنا آثارهم المدوّنة في القرن الثالث والرابع لتاريخ الهجرة . فما قيل عن العرب البائدة ثم العاربة والمستعربة ، نجد الخليل يردده، مستنداً على ما جاء في تاريخ أبي الفداء (مرآة الايام ، ج ١ ص ٧٣/٨٠) ، وهو كله من باب القصص التي حيكت من حول وقائع الجاهلية مع مرّ الزمان ، والتي كشف عن أوجه حوكها الباحثون في تاريخ الجاهلية العربية من المستشرقين . ولا أحب ان أتوسع في الدلالة على صحة هذا الكلام ، فهو معروف لابناء هذا العصر ولاسيما المتصلين منهم بعد الحركة التاريخية في العالم. غير أنهُ قد يقال في معرض الدفاع عن مطران ، أنهُ ألف هذا الكتاب ، في العقد الاخير من القرن التاسع عشر ، وهو شاب يافع ، ولم تكن تحقيقات الباحثين من الافرنج في تاريخ العرب قد ذاعت في الاوساط الشرقية ، حتى يطالب الخليل بالاطلاع عليها ، فضلاً عن ان الرجل لم يكن مؤرخاً ، وما كان التاريخ بمادته . وهذا الكلام وإن بدا صحيحاً لدى النظرة الأولى ، الا انهُ لدى الحقيقة تبرير لنقص الملحوظ على كتاب الخليل . ثم إن العالم العربي شهد في نفس ذلك التاريخ جورجي زيدان صاحب الهلال ، يظهر تحوطاً في تقبل مزاعم مؤرخي العرب عن الجاهلية لانهُ كان صاحب عقلية تاريخية فاحصة ناقدة استكملت أسبابها من الارتياض

والاطلاع في كتب البحاث الغربيين . وذهن الخليل في هذا الكتاب ذهن آخذ بطريقة السرد والتقرير في فهم التاريخ ، يستند الى المراجع ، دون ان يمحص ويفحص ، ولا يحاول ان يستخلص العبرة التاريخية من وراء واقعات التاريخ . ولا يعرض لتيارات التي تفعل في كيان المجتمع وتدفعه ليلبس مختلف المظاهر التي يتكون التاريخ من مجموعها . فالكتاب من الآثار التدوينية في التاريخ . ومما يظهر منطق التدوين في تأليفه ان المؤلف اتخذ في تقسيم الكتاب الى فصول : الزمان ثم الممالك والاقطار في عهود حكامها او ولاتها الذين توالوا عليها أساساً . فالكتاب بعيد عن كونه كتاباً تاريخيًّا في الروح ، وان كان له بعد ذلك من التاريخ الاسم

فالكتاب من الحوليات — Annales — واما ميزته ، فميزة الأسلوب الذي هو نموذج للاسلوب التاريخي في العصر الذي كتب فيه . فهو يمتاز بالدقة والتحديد والوضوح في التعبير ، الى جانب بعض الخصائص الأدبية التي يمتاز بها أسلوب مطران عادة في النثر ، وأظهر ما يكون منها في أسلوب هذا الكتاب الجزالة والقوة ولا عجب فالخليل تلميذ الشيخ اليازجي امام اللغة العربية في عصره وعلى طريقة اليازجي في اللغة نشأ وتقوم أسلوبه على أساس من العربية الفصيحة الجزلة

***

جمع مطران مراثي زملائه الشعراء للمرحوم محمود سامي باشا البارودي في كتاب أخرجه للناس سنة ١٩٠٦ . ولا يهمنا من هذه المجموعة الشعرية الرثائية غير شيئين : الاول مرثاة الخليل لسامي البارودي . والآخر الدلالة النفسية لعمل الخليل . أما عن الامر الاول ، فالمرثاة — كما يرى الاستاذ الشاعر خليل شيبوب — خير مرثاة نظمت في وفاة سامي البارودي وقد جاءت في ديوان الخليل (الديوان ٢٣٨/٢٤٧) وهي من بحر المتقارب وفي القصيدة يظهر مطران متملكاً فن الرثاء فيمكنك ان تخلص من قصيدته بصورة صادقة الدلالة على نفسية سامي البارودي وشخصيته ثم حياة الرجل وجهاده . والاساس في هذا ما بثه الشاعر في المرثاة عن طريق الوصف من حياة الفقيد . والقصيدة في (٩٤) بيتاً فيها اوصاف وتصاوير فنية وتهاويل شعرية تنشئ مع فكرة الرثاء لانسان جمع بين الوزارة والقروسية والشاعرية . ولقد استوقفت هذه القصيدة بأوصافها نظر المستشرق العلامة الدكتور كارل بروكلمان في الفصل الذي عقده عن مطران في الجزء الثالث من « تكملة تاريخ الآداب العربية » وهي الى جانب ما فيها من قوة الوصف القائمة على اتساع الخيال ، قوية في بنائها وفي اسلوبها جزالة وفخم وقوة ، تكرّ الابيات بسهولة تحمل في اعطافها ، عاطفة خالصة تجيء من شعور الانسان بالحزن . ولكن واضح ان العقل ضبط من تأجج هذه العاطفة فخلخلها . فقدت بذلك تأججها ، وهكذا لم تأت تهاناً

منبلجة من القلب ، وإما جاءت نوراً ينعكس على حياة النقد فأبرزها . واما الامر الثاني فيقع على ما يخص هذا السيل من شعور وفاء الخليل نحو علم من اعلام الادب الحديث ، خدم الشعر العربي الاتباعي وقدّم اليه اعظم ما يقدر ان يؤديه انسان نحو أدب قومه فلقد نقل الشعر العربي دفعة واحدة من ضعف عصور الانحطاط الى جزالة وفخامة الشعر العربي القديم

والكلام عن المجموعة التي اخرجها الخليل من مراثي الشعراء لسامي البارودي ، يحملنا على الرجوع الى مجموعة مراثي الشعراء لبشارة تقلا باشا فقد حدثنا الاستاذ الناقد صديق شيبوب فقال : انه وقف في خلال أيام الحرب العالمية على مجموعة مراثي الشعراء لبشارة تقلا باشا . وهو يذكر ان الخليل هو الذي أصدرها . على ان هذا ان صحّ فلا شك ان قصيدة مطران في رثائه خرجت ضمن المجموعة . والواقع انهُ لا يهمنا من شأن هذه المجموعة غير قصيدة مطران . وهي منشورة في المجلة المصرية (م ٢ ج ٣ ص ١٠١/١٠٣) وقد نقحت وشذبت ونشرت بعد ذلك في الديوان (١١٧/١١٩) والتشذيب يتناول على وجه خاص ختام القصيدة . فقد حذف الخليل ، خمسة أبيات جاءت في الاصل المنشور بالمجلة المصرية وأثبت مكانها البيت الذي يختم به قصيدته في الديوان . والمرثاة من بحر الطويل ، وفي ٣٣ بيتاً في الديوان و ٣٧ بيتاً في المجلة المصرية . ولا تمتاز باكثر من عاطفة الوفاء نحو الفقيد (المجلة المصرية . ص ١٠١/١٠٣ : ٣٢—٣٤) ومما يحسن الاشارة اليه هنا ، ان الابيات التي تدل دلالة صريحة على هذه العاطفة ، حذفت من النص المثبت في الديوان . ولا شك ان مجيئها شخصية هي التي أملت على الخليل فكرة الحذف

— ٢ —

في سنة ١٩٠٨ أخرج خليل مطران الجزء الأول من ديوانه « ديوان الخليل » عن مطبعة المعارف بالقاهرة ، وجاءت في ٣٠٢ صفحة من قطع الثمن . والديوان يحتوي على ١٦٤ منظومة متفاوتة المقدار (الطول) ، فضلاً عن بيان موجز من قلم الناظم استغرق صفحتين وبعض صفحة في اول الديوان ، فيها اشار الى طريقته في النظم والاسباب التي دعته الى قرض الشعر . ويمكن ان يُضمّ الى هذا البيان قصيدة « حكاية نشر هذا الديوان » (ديوان الخليل ٢٩٠/٢٩٤) ففيها توضيح وتأكيد لأغراض الشاعر من النظم والأسباب الدافعة له للقريض . والديوان مصدر بكلمات ثلاث يتوجه بها الناظم في كل واحدة الى بعض خلانه من الأكابر يقدم اليهم الديوان . وفي الكلمة الثانية والثالثة يعبر الناظم عن فكرة اهداء الديوان وتقديمه في بيتين من الشعر . وبعد ذلك تجيء مقدمة الديوان وهي ثلاثة اسطر وجيزة ، فيها براعة التقديم للقراء . والديوان اول ما يطالعك من منظوماته قصيدة « ١٨٠٦—١٨٧٠ » اشارة الى معركة (يانا Jena) ودخول نابليون برلين في الشق الاول ، والحرب البسينية ودخول الالمان باريس في الشق الآخر

وقد نظمها الشاعر — على حد قوله — سنة ١٨٨٨ ، وهو في السادسة عشرة من سني حياته . فهي من آثار الصبا . والناظم في هذا يقول : « ولقد نشرتها على علاتها اتمم لبنات صباي من خلال سطورها » (الديوان ص٩ سطر ٥ — ٦) . وان كانت طبيعة القصيدة الشعرية تدل على حالة الناظم العقلية والنفسية ، فان دراسة هذه القصيدة في اجزائها المنفصلة تبين ان خيال الشاعر مربوط بصور الاشياء وأوصافها . ينتزعها قطعة قطعة ، ويصبها في البيت ، مستكملاً الصورة في البيت مستقلة عما بعدها وقبلها ، متأثراً بالقوالب العربية التقليدية ، فهي من هنا تبين ان الناظم كان في سن التقليد والمحاكاة ، لم تستقم لهُ بعد طريقة في النظم تقوم على اساس تكوّن شخصيته المستقلة . على انهُ بالرغم من كونه لم يخلص بشخصية مستقلة في ذلك الحين ، فأغراض القصيدة ومعانيها تبين انه كان في حالة نضوج مبكر

ويجيء بعد ذلك قصيدة قوامها اثنا عشر بيتاً من البحر الخفيف عنوانها « في تشييع جنازة » (الديوان ١٢) نظمها الشاعر في مستهل (يناير) سنة ١٨٩٤ من الطريقة التي خلص بها في النظم نتيجة نضوج فكره . وهي ان كانت فيها بدايات فن الخليل الذي عرف به ، لكنها في صورة بدائية ، لا تثبت للخليل مقدرة ممتازة في عالم القريض . على ان هذا الضعف قد يكون مبعثهُ ان القصيدة كانت اول ما نظمهُ بعد الترك الطويل كما اشار الى ذلك في تقدمة القصيدة (الديوان ص١٢ س٣ — ٤) . وتوالى المقطوعات والقصائد بعدها في الديوان ، وكلما تقدم الباحث في صفحات الديوان ، وقف على آثار التقدم والنضوج في شعر الخليل ، وأول هذا النضوج قصيدته الوصفية الرائعة « المرآة الناظرة او عين الأمة » الديوان ١٣/١٤) ، ففيها براعة الوصف والاقتدار على التصوير

والديوان يحتوي على ٣٥٧٥ بيتاً مفرداً كاملاً من الشعر و ٣٧ سطراً من الشعر المنثور (النثر التوقيعي) Prose rythmée و ٢٦١ قدة خماسية و٨٣ قدة ثلاثية وبالجملة ٤٤٦٤ بيتاً من الشعر

وبمراجعة القصائد يتبين ان المتوسط للقصيدة في الديوان ٢٧ بيتاً . أما اذا استثنينا ما جاء في « المزدوجات » ، فاننا نجد المتوسط يرتفع الى ٣٢ بيتاً . وهذا يثبت ان الصفة الغالبة على شعر الخليل القدر المتوسط وما يميل منها الى الطول . ومما يثبت صحة هذا الكلام ان جزءين من خمسة أجزاء من شعر الديوان تقريباً يجيء في القصائد المتوسطة الطول . ويليها في المقدار القصائد الطويلة فهي تجيء جزءين من تسعة أجزاء مما يثبت ان الصفة الغالبة على قصائد الديوان القدر المتوسط وما مال منها الى الطول

هذا الاستقراء يثبت ان نفس الخليل في الشعر طويل ، ولا يجب ان تدخل في حسابنا الشعر الافرنجي ومقدار طوله ، فان خلوص الشعر الاوربي من التزام القافية الواحدة في القصيدة أتاح للشاعر الاوربي مدى لا يمكن ان يفسحهُ للشاعر العربي الشعر العربي الذي يلتزم قافية واحدة في

القصيدة. واذن يكون مرد هذا الحكم ملاحظة اعتبارات الشعر العربي، واستقراء مقدار (طول) القصائد العربية . وهذا بوحده هو الذي يملي علينا الرأي في طول النفس الشعري عند الخليل

واستقراء الابحر التي جاء فيها شعر الخليل ، تثبت ان أكثر الابحر شيوعاً في شعره ، الكامل فالطويل فالخفيف فالمتقارب فالمجتث . وهذا الاستقراء مبني على تقطيع أوزان قصائد ثلثي الديوان الاول تقريباً ، اعانا في اجرائه أخي الشيخ ابراهيم بمعهد الاسكندرية الديني (القسم الثانوي) ثم اثبت الاستقراء الكامل لشعر الديوان — وقد اعانا عليه الاستاذ الشاعر خليل شيبوب — ان شعر الديوان يجيء في العموم من أبحر محدودة انطرد منها في شعره ، تلك الابحر المعروفة برحابتها واتساعها (المبحث التاسع — الفقرة الاولى) . فاذا نظرنا الى اغراض (موضوعات) شعر الديوان ، وجدنا الصفة الغالبة عليه الوصف، والواقع ان الخليل شاعر وصاف من الطبقة الأولى ، ومن فنّ الوصف عنهُ يتفرع شعر القصص والرثاء والوجدان ، ويجيء ما يجيء من شعر المناسبات . فمن بين ١٣٠ منظومة تقريباً من منظومات الديوان جاءت نحو ٦٠ منظومة من الوصف ، وتبلغ مجموع أبياتها ١٣٧٤ بيتاً و١١ منظومة من باب القصص تبلغ مجموع أبياتها ١٢٥٢ بيتاً و ٢٥ منظومة من باب الرثاء تبلغ مجموع أبياتها ٧٢٦ بيتاً و٢٠ منظومة من الاغراض الوجدانية ، تبلغ مجموع أبياتها ٤٥٧ بيتاً . اما شعر المناسبات ، فهو يجيء من باب الوصف. وعدد منظوماتها في الديوان ١١ منظومة تبلغ عدداً بياتها ٢٤١ بيتاً . وهذا الاستقراء يبين ان الغرض الوصفي والقصصي غلابة على قصائد الديوان[1]

— ٣ —

من الأهمية في مكان وقد تكلمنا في الفقرة الثانية عن بحور شعر الخليل في الديوان وأغراضه ، ان نستعرض هنا في صورة مجملة شعر الديوان ، وقد سبقت الاشارة الى قصيدتي مطران في رثاء بشارة تقلا باشا وسامي باشا البارودي ، وقصيدتيه اللتين يستهل بهما الديوان من الاغراض الجديدة التي نظم منها الشعر بعد عودته اليها بعد الترك الطويل . وهكذا نجد ان القصيدة « بدري وبدر السماء » (الديوان ١٤/١٥) أولى القصائد التي تصادفنا في استعراضنا لشعر الديوان . وهي في ٢٨ بيتاً جاءت من بحر « المجتث » ، وليس فيها ما يستوقف النظر من براعة النظم او القدرة على الوصف ، وان كان فيها عاطفة ظاهرة تترقرق مع كرّ أبيات القصيدة. ويجيء بعدها حسب الترتيب الموضعي والزمني في الديوان قصيدة « فاجعة في حزل » (الديوان ١٦/١٧) . وموضوع القصيدة ان شباباً في قرية من قرى لبنان ، اجتمعوا للعتدامة في دار أحدهم ، فسمعوا بجوارهم حفلة لهوة وغناء ، فأرادوا ان يتحايلوا عليهنّ ويفوزوا بالاجتماع

(١) المقتطف يوضح الدكتور راندم جد ونيز نيبورز استقراء ثيز سبعة فان بهذه المجموعة متى ظهرت في كتاب على حدة

بين. فتهاوت أحدهم ، وانتحب الباقون ، وهرعت النسوة وقد رأعهن المصاب النازل ، وطفقن يكبن الحي الميت . فما كان من صحب الراقد الا ان أسرّوا اليهن بحيلتهم في دعوتهن اليهم ، فحفلن حول سرير الراقد يعانقنه ويهرتنه ، ولكن بلا جدوى ، فقد ذهب الراقد ينام النومة الأبدية . وهكذا تحول فرحهن الى مناحة وسرورهم الى بكاء . والقصيدة أتت في ٢١ بيتاً من الشعر من بحر الكامل ، وحانيها تجري في اكسيتها اللفظية بجلال ، وتمر بسهولة كالنهر الواسع العميق . وقد ساعد على ذلك اتساع البحر ورحابته . وهذه القصيدة نشرت في مجلة أنيس الجليس (م ١ ج ١٠ ص ٣٢٧/٣٢٨) في صيغة تختلف بعض الاختلاف عن الصيغة التي جاءت في الديوان . وأبرز ما يكون الاختلاف بين الصيغتين في ختم القصيدة . فالابيات الخمسة التي في الختام بالديوان ، ليست موجودة في الاصل المنشور بمجلة أنيس الجليس ، ويجيء بدلا عنها ، ثلاثة أبيات أخرى لم يثبتها الناظم في الديوان . كذلك البيت الحادي عشر في قصيدة الديوان لا وجود له في الاصل المنشور بأنيس الجليس ، فضلاً عما هنالك من الاختلاف في التعبير والصيغ لبعض أبيات القصيدة . ويستوقف النظر بعد ذلك من منظومات الديوان قصيدة « نابليون وجندي يموت » (الديوان ٢٢/٢٤) وهي في ٤٠ بيتاً من بحر الوافر . ويغلب عليها جانب الوصف . ويجيء بعدها بيتان من الشعر من بحر الكامل عن « نابليون وهو يرقب السماء في أخريات أيامه » وهي على الارجح مترجمة عن فيكتور هوغو

ولمطران في الديوان تهنئة لخديوي مصر على أثر فتح السودان (الديوان ٣٥/٣٦) جاءت من بحر الكامل . والجانب الوصفي غالب على بقية الجوانب فيها . وله بعد ذلك بعض مقطوعات وقصائد لا يستوقف النظر منها غير قصيدته « النجمتان » (الديوان ٣٣/٣٤) و« الوردتان » (الديوان ٣٥/٣٧) وقد جاءتا من بحر المجتث ، والصفة الغالبة عليها ، الوصف اما الثانية فتيها سوانح فلسفية من المذهب الفلسفي المعروف باسم الاسمية Nominalism (القصيدة ٣٥/٢:٢) وفيها أثر التوفيق والجمع بين الاضداد ، واعتبار الخليقة جميعاً لها وعملاً على موازنتها

ويستوقف النظر بعد ذلك قصيدة مطران في «وداع مصر» (الديوان ٧٤/٧٥) وقصيدته في «لقاء الشام» (الديوان ٧٥/٧٦) و« تذكار صبي » (الديوان ٧٦/٧٩) والاولى والثانية من بحر الرجز ، بينما الاخيرة من بحر الخفيف . وقد سبقت الاشارة الى هذه القصائد في غير هذا المكان عند الكلام على قصة حبه . ويجيء بعد ذلك قصيدته عن « الأهرام »(الديوان ٨٣) وقد نظمها الشاعر في ربيع عام ١٩٠٠ على أثر زيارة له لاهرام سقارة ، والقصيدة من بحر الرجز ، فيها قوة الوصف والتصور وسعة اللوحة وبروز الألوان . وتأتي بعدها قصة « وفاء» (الديوان ٨٤/٨٨) جاءت من بحر الطويل وبلغت اياتها ٨٧ بيتاً . وقد نشرت في الأصل

في المجلة المصرية (م ١ ج ١٢ ص ٤٩٩/٥٣) وهنالك بعض الاختلاف بين ما جاء في الديوان، وما جاء في المجلة المصرية وأبرز هذه الاختلافات قول الشاعر (ص ٨٤ ص ٥ — ٧):

ولو شئت قال الحب امرة قادر لجدب هذا العيش أزهر وأمرع
وللقفر كن صرحاً مشيداً لأنسها وللصخر كن روضاً وأورق وأفرع
وللظلمة الخابي بها النجم اطلعي لها أنجماً إن تغرب الزهر تسطع

فهي في الأصل المنشور بالمجلة المصرية جاءت هكذا:

ولو شئت قال الحب امرة قادر لجدب هذا العيش يزهر ويمرع
وللقفر كن لها فهو كائن وللصخر كن روضاً فيورق ويفرع
وللظلمة الخابي بها النجم اطلعي شموساً واقماراً عليها فتطلع

والقصيدة — كما يقول مطران — أخذ طريقتها من الغربيين (المجلة المصرية م ١ ج ١٥ ص ٦١٦) ولم يتقدم قبل الخليل شاعر عربي في كتابه القصة الشعرية على هذا النمط (المرجع ذاته ص ٦١٥). وموضوع القصة ليس من وضعه ولكن سمعها الناظم من احد اصدقائه، فأدار فكرتها في ذهنه حتى اخرجها في الكساء الذي ترفل فيه. ومما يمكن ان يؤخذ على هذه القصة ان الناظم لبى الإشارة متسدداً الى كون قرين الفتاة الموادة التي تحكي القصة حكاية حالها، بادئاً دموي المزاج مع قلق في العاطفة وتقسم في القلب. وقد كانت هذه الاشارة لازمة لاعداد الاذهان لتصديق ما حل به على اثر وفاة قرينته. على ان مطران يدفع هذا المأخذ، بأنه اضرب عن ذكر ذلك تسدداً، لأن موقع الالفاظ الدالة على هذه المعاني تقع موقعاً سيئاً من الشعر (نقد القصيدة في المرجع السابق ذكره). ويظهر ان مطران قد شجعه نجاحه في نظم الشعر في الغرض القصصي، فنظم بعد قصيدة «وفاء» قصيدتين قصصيتين، الاولى «العقاب» (الديوان ٩٢/٩٧) وهي في الاصل منشورة بمجلة سركيس (م ١ ج ١٦ ص ٤٨٩/٤٩٣) وقد جاءت من بحر الطويل في ٩٥ بيتاً، والاخرى «فتيان قهوة» (الديوان ١٢٣/١٢٨) وهي في الاصل منشورة بالمجلة المصرية (م ٢ ج ٢٠ ص ٨٤١/٨٤٦) وقد جاءت من بحر الكامل في ١٠٤ ابيات. وفي هاتين القصيدتين تظهر قوة الخيال الشعري واشتراك الخليل لفن القصص الشعري

وفي النطاق الذي بين القصيدتين، قصيدة «المساء» (الديوان ١١٩/١٢١) وهي من أروع القصائد الوجدانية التي في الديوان. جاءت من بحر الكامل، في ٤٠ بيتاً نظمها الشاعر وهو عليل في مكس الاسكندرية، وهو يظن نفسه مريضاً بنفس الداء الذي مات به معشوقه (الديوان ١٨٦) ومن هنا نجد ارتباطاً بين هذه القصيدة وبين قصيدة «من مات بدائه» (الديوان ١٨٦). وهذا الارتباط يوحي بأن نعتبر هذه القصيدة من منظومات قسم «حكاية

عاشقين» (الديوان ١٥٦/١٩٥) التي سجل فيها مطران قصة حبه ، لأنها تصور حالته الشعورية في حالة الحب مع الحبيبة وبعد فقده لها

ولمطران قصيدة عن حرب البور عنوانها «حرب غير عادلة وغير متعادلة» (الديوان ١٤٧/١٥٣) وقد جاءت من بحر الكامل وهي تصور في دقة وقوة وقائع هذه الحرب وله كذلك في اول نشوب حرب البور قصيدة «الطفلة البورية» (الديوان ١٣٧/١٣٩) . وفي استئنافها قصيدة اخرى عنوانها « في استئناف حرب جائرة » (الديوان ٢٢٢/٢٢٣) . والاولى من بحر المجتث والاخيرة من الرمل . وهذه القصائد الثلاث تنطوي على شعور الشرق العربي ومصر ازاء هذه الحرب والعطف الشعري أساسه الاشتراك في النقمة من العدوان الواقع على جنوب افريقية والشرق العربي وفي هذا يقول (الديوان ١٤٧ ص٥—٦) :

بين الذين يقاتلون وبيننا قربى النعم
من يستبحهُ عدوُّنا فله بنا صلة الرحم

ويستوقف النظر من منظومات الديوان في القسم الذي يجيء قبل « حكاية عاشقين » التي تشغل حيزاً مستقلاً في قلب الديوان . وبعد قصيدة مطران عن حرب البور قصيدته القصصية «فتاة الجبل الاسود» (الديوان ١٥٤/١٥٨) وهي من بحر المتقارب بلغت جملة أبياتها ٧٣ بيتاً وفيها وصف دقيق لمعارك الترك مع اهل الجبل الاسود وبسالة هؤلاء في الدفاع واقدام الآخرين على الهجوم . ومن بين المعارك يبرز فتى مشرق الجبين ويكر على جموع الترك ويعمل فيهم السيف طعناً ، حتى يحيط به جموع الترك ويأخذونه أسيراً الى حيث امير الجيش التركي الذي يصدر الامر باعدامه ، فيشق الفتى عنهُ ثيابه بعد ان يقضي عنهُ حراسه ويظهر للجمع أنهُ فتاة كعاب ، وتصرخ في وجه جحافل الترك متددة بعدوانهم على قومها ، وان شعور فتوة أبناء جلدتها ، هو الذي دفعها الى هذا المسلك الخشن . فيأخذ العجب بالامير ويأمر ان تنقل الى مضرب وتكرَّم ويقول لمن حوله : ان بلداً تفتديه النساء كهذا الفداء لن يستعبد . وفي القصيدة وصف رائع لموقف الفتى حين أتوا به الى محضر الامير ، وكيف كشف عن نقبه الغطاء فاذا به فتاة حسناء وفي وصف حسنها يبلغ الناظم الأوج . والابيات التي تصف حسنها جرت بجرى الشعر الذائع فتناقلتها المجلات والصحف (الزهور م ٢ ج ٩ ص ٣١٥ مثلاً) . وأبرز ما في هذا الوصف ، وصف الشاعر لهدي الفتاة

ومن القصائد الوصفية التي في القسم الاول من الديوان ، وهي تدل على مقدرة الخليل على الوصف ، قصيدة في « فنجان قهوة » (الديوان ١٢٩/١٣٠) وهي في ١٩ بيتاً من بحر الكامل تدل على قوة في الخيال وسعة في ملكة التصوير ، يكاد لا يقف فيها بجانب الناظم أحد من الشعراء المعاصرين . والقصيدة منشورة في الاصل بالمجلة المصرية (م ٢ ج ٢٤ ص ٩٩٨/٩٩٩) ،

ويظهر أن بيتاً سقط من النص المنشور بالديوان وهو :

أنا ترين عوالم الفتجان في أطوارها كعوالم الوجدان

وموضعهُ من القصيدة بعد البيت الرابع فيها

تشغل «حكاية عاشقين» القسم الثاني من الديوان (الديوان ١٥٦/١٩٥) . تنفصل الديوان الى شطرين . ومعظم شعر هذا القسم تغلبُ الناحية الوجدانية، وان لم يخل هذا الشعر الوجداني من أبيات او مقطوعات وصفية . وقد سبقت الاشارة الى شعر هذا القسم حين الكلام في قصة حب مطران

اما القسم الثالث والاخير وهو الذي يجيء بعد حكاية عاشقين، فأول ما يستوقف النظر منهُ قصيدة « الجنين الشهيد » (الديوان ١٩٩/٢١٨) وهي قصيدة قصصية جاءت من بحر الكامل وعدد أبياتها ١١٦ بيتاً . وتعتبر هذه القصيدة أروع ما في الديوان، بما فيها من التصاوير الشعرية والاوصاف الفنية والأخيلة المجنحة والاحساسات الحياشة . على انهُ يلاحظ على هذه القصيدة ان الناظم استقصى المعاني والمشاعر والاحاسيس وسبرها الى غورها، ومن هنا جاء ما في الوصف من الدقة التحليلية والمبنى القوي ، والابيات تكر بسهولة، رغم طول القصيدة ، تجمعها وحدة الموضوع والفكرة المتشية في أبيات المنظومة . على انهُ يلاحظ بعض العيوب العروضية في المنظومة ، اضطرَّ اليها الخليل لاطراد الفكرة معهُ وتسلسلها ، وأظهر هذه العيوب التضمين في تعليق بعض الابيات بما بعدها (القصيدة ٣٣ و ٦٩ و ٨٩)

وتجيء بعد هذه القصة قصيدة « الاقتران » (الديوان ٢١٩/٢٢٣) وهي من بحر الخفيف مخمسة ، وفيها وصف رائع لخلق حوَّاء من ضلع آدم . فالقصيدة القصصية « غرام طفلين » ، (الديوان ٢٢٣—٢٢٦) وهي في ٣٤ بيتاً من بحر الكامل ، وفي هذه القصة براعة الوصف والتعمق فيه الى أقصاه ، وهذا ما يظهر في المقطوعة الثانية من القصيدة، التي تريك المظهر الاول لحب الطفلين . وقصيدة « حلوى العيد » (الديوان ٢٢٧/ ٢٢٨) ؛ هي ٢٢ بيتاً من بحر الكامل وفيها يظهر عنصر الدعابة البريئة والملاطفة ، ثم يبدو من خلال ابياتها عنصر الرقة . وفيها وصف شائق لمرب عيد اجتمعن لصنع حلوى العيد . ثم تجيء بعدها قصيدة « الطفل الطاهر والخلق الظاهر » (الديوان ٢٤٢/ ٢٥٠) وهي مخمسة من بحر الكامل ، وفي هذه القصيدة انتصار لحقيقة روح الدين التي تغيب عادة عن رجاله ، وحملة على الجامدين من رجال الدين . وقد سبقت الاشارة الى هذه القصيدة . أما قصائد مطران عن « عنترة » و (الديوان ٢٦٢/ ٢٦٤) و « شيخ أثينة » (٢٦٤/٢٦٦) و« عرس قانا» (الديوان ٢٦٩/ ٢٧٠) و« رثاء الشيخ ابراهيم اليازجي» (الديوان ٢٧٤/ ٢٧٦) فتستوقف النظر من بين قصائد القسم الاخير من الديوان بأخيلتها وصورها . ويجيء في هذا القسم من الديوان مطور من الشعر المتنوع (الديوان ٢٧٦/ ٢٧٨)

في الرثاء، وقد توقف عندها البروفسور بروكلمان (تكملة تاريخ الآداب العربية، ج ٣ ص ٩١) وقرر ان الناحية الغالبة عليها، الناحية التأثرية، وأن التأثر واضح فيها بوالت ويتمان Walt Whitman الشاعر الاميركي، الذي كان عظيم التأثير في شعراء المهجر في أميركا.

ويختم الديوان بقصيدة « حق الوطن وحق الأخاء » (الديوان ٢٩٨/٣٠٢) وهي في ٩٥ بيتاً من بحر الكامل، وتعتبر آية في الاتجاز، وهي في رثاء مصطفى باشا كامل رجل الشرق المفرد وبطله الاوحد، كما يقول الناظم (الديوان ٢٩٧). وفي القصيدة بيتان من الشعر يعتبران مثالاً للوضوح الشعري والبلاغة السافرة. وهما قوله: —

مصر العزيزة قد ذكرت لك اسمها وأرى ترابك من حنين قد حفا
وكأنني بالقبر أصبح منبراً وكأنني بك موشك ان تهتفا

فهنا صورة كاملة تلهمك إياها بخفة السحر هذين البيتان رغم ما فيها من السهولة في التعبير التي تكاد بوضوحها تشف عن معانيها. وقد توقف عندها مجباً المستشرق الروسي كزميرسكي في كتابه (« مختارات من الادب الحديث » ج ١ : ص ١٦ الهامش — موسكو ١٩٣٧)

خاتمة

ولما كان الشعر الذي نظمه الخليل بعد خروج ديوانه، متفرقاً بين صفحات الصحف والمجلات، وسبق ان أثبتنا في المبحث الثامن ما أمكن لنا العثور عليه أثناء تنقيبنا في صحف الجيل الماضي وهذا الجيل، نكتفي هنا باثبات ما لم يتسنّ لنا اثباته هنالك من باب التسجيل التاريخي[1]. ١ — « تحية الطيارين العثمانيين » (المقطم — الاسبوع الثاني من مايو ١٩١٤) ٢ — « عظة اليد » (الروايات الجديدة م ٢ ج ٣٤ ص ٤١٣ — ٤١٦، القيت في فندق شبرد بمناسبة عيد الدستور العثماني) ٣ — « غضة النثال » (المصور، العدد ٧ ص ٢ — ٥ دسمبر ١٩٢٤) ٤ — « أناشيد وطنية » (الهلال نوفمبر ١٩٣٩) ٥ — « الشباب المنقضي والصداقة الباقية » (الروايات الجديدة، السنة الثانية، العدد ٣٢ ص ٣٥٢/ ٣٥٥) ٦ — « الحياة الحب » (السياسة الاسبوعية) « السنة السادسة » عدد ٧٤١ ص ١٨

وهذه القصائد بالاضافة الى ما سبق اثباته وما سيجيء في لحق المبحث، تحصر ما تفرق من شعر الخليل على صفحات المجلات والصحف، ودراسة هذا الشعر واستقراء أغراضه وأنواعه وأبحره من الصعوبة في مكان، لانهُ غير مجموع في ديوان، ولهذا صرفنا النظر عنهُ مكتفين باستقراء شعر الديوان واستعراض منظوماته

* * *

في سنة ١٩٢٢ أخرج الخليل عن دار الهلال بالقاهرة ترجمتهُ لمسرحية « تاجر البندقية »

(١) أنظر الملحق (سيجيء بعد في ختام الدراسة)

وقد تقدم الترجمة بمقدمة (٣/٨) تكلم فيها عن أصل القصة، وبين أنها أحدوثة جرت على الالسن بايطاليا، ثم تداولتها نقلاً عنها سائر الأمم. وعرض لقصة شكسبير لها فقال: «طالعها شكسبير، فما أجالها في ذهنه حتى طفق يهيء أجزاءها ويرتب مشوقاتها ويصل بين أوائلها وأواخرها. وصور حادثة انسانية شعرية معطياً إياها من الجدة والندرة ما رفعها الى أروع ما أبدعته القرائح» (المقدمة ٣). والمسرحية على التالي مترجمة عن الفرنسية، وفي هذا يقول ميخائيل نعيمه في الغربال: «لقد لاح لنا من غضون بعض سطور (ترجمة الرواية) ان (مطران) نقلها عن ترجمة افرنسية لا عن أصلها الانكليزي» (الغربال ١٩٦ س ١٧ — ١٨) وقد أكد هذا توفيق حبيب في الفصل الذي عقده عن تراجم شكسبير في العربية بمجلة الهلال (م ٣٦ ج ٢ ص ٣٠٣/٣٠٤). ويظهر ان نتيجة هذا، كان تسرب بعض التعابير والالفاظ الفرنسية الخاصة بالترجمة الفرنسية الى الترجمة العربية. من ذلك — كما يقول نعيمه — استعمال كلمة «موسيو» في الترجمة العربية، واعتبار لفظ «لطيفة» عربيًا وكأنها ناظرة الى Gentile في الانكليزية. (الغربال ١٩٦/١٩٧). على ان مطران بعد ذلك تمكن من استيعاب اغراض وليم شكسبير في مسرحيته فنجح في نقلها الى العربية وأداها بأمانة تكاد تبلغ حدّ الكمال. والواقع انهُ على الرغم من جميع ما أخذ صاحب الغربال على ترجمة الخليل فانهُ لم يكتم نفسه عن الاعتراف بأن الخليل «أوفر كتّاب العربية مادة وأتمهم عدّة لتعريب شكسبير»

وقد جاءت الترجمة العربية في اسلوب فخم جزل قوي، ويظهر ان المترجم وضع نصب عينيه «الكفاء اللفظي الخليق بأن تكتسي بها ارواح المعاني الشكسبيرية» ومن هنا جاءت في الترجمة من شوارد الالفاظ وأوابدها، التي جعلت البعض يأخذ عليه نقد الترجمة (الغربال ٢٠١/٢١٢) اما ترجمة الخليل لمسرحية «عطيل» فقد خرجت عن مطبعة المعارف خلال الحرب [؟]. وبروكلمان لا يشير في «تكملة تاريخ الآداب العربية» في الفصل الذي عقده عن مطران، الى تاريخ صدور المسرحية (٣٣ص٩٥). ولكن بعض القرائن تحملنا على ان نقول بأنها صدرت قبل تاجر البندقية، في فترة الحرب، او في سنة الحرب نفسها وما يقال عن ترجمة الخليل لعطيل، هو صورة مما قيل عن ترجمته لتاجر البندقية. أما ترجمة الخليل لرواية «السيد» عن كورنيل وقصة «القضاء والقدر» فلم نظفر بالاطلاع عليهما، كذلك كتابه «الموجز في علم الاقتصاد»؛

والواقع انه لا يهمنا في دراستنا هذه، من آثار خليل مطران الا الجانب الشعري منها وما استطردنا الكلام عن آثاره الا من باب استكمال الحديث عنهُ. اما آثاره المخطوطة واوراقه الخاصة المكتوبة، فالحديث عنها متروك الاجيال القادمة، وما على الخليل وحميه وابناء هذا الجيل، الا ان يعملوا على حفظ هذه الآثار وتسليمها الى الاجيال المقبلة

الدماغ
المخيخ
النخاع الشوكي

قوام المشتري وزحل

رأي جديد

أمام هذه الصفحة صورة منقولة عن مجلة « السفير » The Sphere الانكليزية وهي تمثل السيارين المشتري وزحل بحسب الرأي القديم في قوامهما وبحسب الرأي الجديد الذي أسفرت عنهُ مباحث علماء الفلك والطبيعة الفلكية في العهد الاخير. فأصحاب الرأي القديم كانوا يذهبون الى ان هذين السيارين غازيان مضيئان لشدة حرارتهما . وكانت تنتاب سطح كل منهما أعاصير قيل أن سرعتها ٩٠٠ ميل في الساعة (رقم ٢) ولذلك ظن ان حرارة الشمس الواقعة عليهما غير كافية لاحداث هذه الاعاصير فارتدَّ العلماء في تفسيرها الى شدة حرارة باطنهما . وكان الظن ان كثافة مادتهما مثل كثافة الشمس تقريباً او ١٫٤ كثافة الماء (رقم ٥) وقيل ان حلقات زحل أصلها من النيازك او من تيارات من الدقائق المكربة « المؤينة » كالكهربيات التي تطلقها الشمس في الفضاء (رقم ٣) وان لكل منهما قطبين مسطحين (يظهر التسطيح في كل منهما بالقياس الى الخط المقطع وهو يمثل دائرة تامة (رقم ٤) وهذا يتفق مع قوامهما الغازي وسرعة دورانهما (فدوران المشتري تبلغ سرعتهُ عن خطهِ الاستوائي ٢٢٠٠٠ ميل في الساعة وسرعة دوران زحل عند خطهِ الاستوائي تبلغ ٢٨٧٠٠ ميل في الساعة)

هذه الحقائق المتقدمة هي ملخص الرأي القديم في قوام هذين السيارين والارقام المثبتة في هذه الصورة انما وضعت للاشارة الى هذه الحقائق المختلفة

أما الرأي الجديد فأساسه ان باطن زحل كرة صخرية قطرها ٢٨ الف ميل (رقم ١٢) . وباطن المشتري كرة صخرية كذلك قطرها ٤٤ الف ميل رقم (١٩) ويحيط بهذه الكرة طبقة كثيفة من الجد كثافتها ٦ آلاف ميل في زحل (رقم ١٣) و١٦ الف ميل في المشتري (رقم ٢٠) ويليها طبقة الجو وكثافتها ١٦ الف ميل في زحل (رقم ١٤) و٦ آلاف ميل في المشتري (رقم ٢١). ويبلغ معدل كثافة زحل ٠٫٧ الماء ومعدل كثافة المشتري ٠٫٧٨ الماء. والجو في الحالين متقلقل اليوم ومن الطبيعي أن تكون الطبقات السفلى في جوّ هذه ثخانته شديدة الكثافة لشدة الضغط الواقع عليها . فاذا اجتمع الضغط الشديد والبرد الشديد سالت بعض الغازات كالايدروجين ويبقى بعضها غازيًا فينجم عن ذلك ان تجد مقادير من العناصر السائلة طافية على العناصر الغازية وهذا يفسر الاضطراب الدائم

وقد اشرنا في مقتطف فبراير ١٩٣٩ (صفحة ٢١٢—٢١٤) الى هذا الرأي الجديد في قوام المشتري ولكن الكاتب العلمي في مجلة السفير يذهب الى ان ما يقال في قوام المشتري يقال في قوام زحل كذلك وفي قوام أورانوس ونبتون مع ان رصدها الدقيق متعذر لبعدها

قرية نائمة...

هنا يصف الشاعر قرية « ريدنج » الانكليزية وقد زارها واستقبل فيها فجر الفجر وهو يشرف على شاطئ « التايمز » فيمت الحياة فيها : —

مازال الكونُ على البطاح وهجنا — والكونُ في أحلامه ... الا أنا
إني على الفجر المضوئ قائم — استقبلُ الإصباح لماحَ السنا
والنهرُ وسنانُ الخريرِ كأنهُ — غرقانُ في الاحلام ، غافٍ في المنى
وكأن تمتمةَ النسيم بشطه — سورٌ يرتلها المسبّح سوهنا ...

* * *

اصبح في الوادي رفيفُ سكونهِ — فكأنه اتخذ الخمائلَ مسكنا
وسنانُ ما بين الهضاب كأنهُ — يتلقى بها مهداً طريًّا لينا
لا توقظوا تلك الطبيعةَ حلوة — لا تزعجوها بالضجيج مطنطنا
لا تثقلوا باسم الصباح هدوءها — لا تجعلوها للصباح موطنا ..!!

* * *

يا لوحةً فجريةً أبصرتُها — فرأيت فيها الصانع المتفنا
الله جلاّها وأبدع وشيها — واتقنَ فيها راسماً وملوّنا
أجدُ الهدوء على تسلسل ظلّها — وأرى الصفاء على رُباها بيّنا
حتى اذا الشمس المضيئة أشرقت — ومشى الشعاعُ على الربى وتلوّنا
وصحت من النوم الحياةُ وحيّاتْ — لكفاحها اليومي أجنادَ الدنى
انبتَ في الوادي الضجيجَ مدوياً — وسمعتَ بالصبح البشيرَ مؤذنا

* * *

النهر عاد الى الحياة وجرجرت — فيهِ السفائنُ من هناك ومن هنا
ومشت بشطيه الجموع سريعةً — من بعد ما مالت مساء للونى
وسمعتُ ثرثرة الحياة بمائه ... — ورأيتُ فيهِ العالمَ المتمدنا
ومشى بأذنيَّ الضجيجُ كأنهُ — صوتُ النذير على هدوئي أعلنا...
وأفاق من رؤياه كلُّ مهوّم — وصحا على احلامه ... الا أنا

الأغذية

الكيميائية الحديثة

في أقراص وحبوب صغيرة
تشفي الامراض وتنمي الابدان

لعوض جندي

« ومن الممكن ، وبعض علمائنا يرى ذلك محتملاً ، حيال تضاؤل غلات العالم وعجزها عن سدّ عوز الناس من القوت، أن يوفّى هذا النقص من الاطعمة الصناعية التي تركب في المصانع الكيميائية ، وهي ثمرة من ثمار علومنا العصرية . ومعلوم أن الاطعمة الكيميائية تحتوي على الوقود الحيوي الذي تفتقر اليه الآلة البشرية ، أي بنية الانسان ، وتأتي بنتائج تماثل من كل الوجوه ، نتائج العناصر الكيميائية التي تدخل الجسم، مما تتناوله الآن من ألوان الغذاء الطبيعي. وفي زمننا هذا يدرس كثيرون من العلماء هذا العلم الجديد، ونعني به الكيمياء الحديثة الخاصة بالغذاء

« بيد أن بعض علماء الفسيولوجيا والكيمياء قد أقدم على التنبؤ بطول اليوم الذي فيه ، يأتي الغذاء الى الانسان عفواً صفواً ، لم يخلق له وجهاً ولم يمد اليه يداً . وذلك بأن يقصد المرء من فوره ، الى القوة الحيوية ، التي هي مصدر الحياة ، التي تستمدّ من الشمس ، فتكمن في الذرات ومتى وصّل الانسان بدنه بآلة كهربائية معينة انقاد له من مراكزها ، وقودٌ حيوي كافٍ لاضطلاعه بسعي عمله اليومي . غير أن رأياً كهذا لم يجل بخاطري وانما هو من بنات افكار المستر ولز ، فانضرب عن تفصيله صفحاً ، في هذا الكتاب الذي أطلقت عليه اسم (ما بعد غد) لانهُ الآن أقرب الى خيال الشعراء ، منهُ الى حقائق العلماء (١)

وقد قرأنا في مجلة العلم العام الاميركية الصادرة في يونيو ١٩٣٦ ما يأتي في الموضوع نفسه :

أصبح في وسع الكيميائيين، تركيب الاغذية البشرية، في مختبراتهم ، حيث أتيح لهم استخراج حوامض غريبة، تتغلب على الامراض، ثم تحضير المواد الكيميائية المركبة التي تتألف منها المواد الحيوية التي في اللحم والدم البشريين، وهي أحدث مخترعات أقطاب الكيمياء في معاملهم المدهشة

(١) صفحة ٤٢ بمقتطف يوليو ١٩٢٨ في مقال العلم والعمران وهو فصل من الفصول التي عهد الى حينئذ رئيس تحرير المقتطف في ترجمتها من كتاب (ما بعد غد) لمؤلفه السر فيليب جبس

(ومثلهم في ذلك مثل الباحثين في العصور القديمة ، الذين كانوا ينشدون « اكسير الحياة ») اذ يقوم علماؤنا العصريون بتخمير أنواع من المرق الذكي الرائحة ، من أطنان السمك ، وحزم الخضراوات ، ليستخرجوا منها المواد الاولية في الاحياء ويدرسوها ، فتكشفوا بما كشفوه من الحقائق عن مزج بعض المواد الغريبة ، بعضها ببعض ، مزجاً لم تستطعه من قبل الا الطبيعة وحدها ، فأصبحوا على وشك الوقوف على سر الحياة أو لغزها العويص الذي ما زال العلماء يطمحون الى حله من أقدم العصور. ونعني به ، المادة المؤلفة للجسم البشري ، وقد أدرك كنهها الكيميائيون من عهد قريب

ولعلك تعلم المحاولات ،التي يقصدبها الدعابة والتحقير ،في تقدير الجسم البشري ،بحسب عناصره الكيميائية طبقاً لسعر السوق . ومنها ان في جسم الانسان من الحديد ، ما يكفي لصنع مسمار متوسط الحجم . وفيه من الجير ، ما يكفي لتبييض كن دجاج . ومن الكبريت ما يعادل القدر الذي يستعمل لابادة البراغيث من جسم كلب واحد ! ! ومن قبيل ذلك التقدير ما هو أدعى الى الدهش ، وهو الثمن الذي تساويه محتويات الجسم البشري من الكربون والايدروجين والاوكسجين والنيتروجين . والرد السديد على اولئك الماجنين ، انك اذا اعطيت ذلك الرجل الذي يبغي ان يحط من شأن الجثة البشرية ، المواد الكيميائية الاربع الاخيرة ، وطلبت اليه ان يصوغها على غرار المواد المركبة التي يتألف منها النسيج البشري ، عجز كل العجز لأن اقرب ما استطاعت المعامل الكيميائية انتاجه من المواد المقلدة تلك العناصر الغريبة الداخلة في تركيب الجسم البشري يبلغ ثمن الرطل الواحد منها الف ريال !! وهذا عين ما ذكرناه في مقال لنا في المقتطف في نوفمبر سنة ١٩٣٨

وأكبر مراكز صناعة تلك المادة النفيسة ،طائفة من المعامل الكيميائية ، مقامة تحت الارض كالصوامع ،وذلك في مدينة لوس انجليس في ولاية كليفورنيا من أعمال أميركا حيث يشاهد الزائر جمعاً من صفوة الباحثين ، برآسة الدكتور ، ماكس ضن Max Dunn الاستاذ في جامعة كليفورنيا يعالجون بلورات نادرة كأنها الدرر النوالي ،وهناك الجهاز المنظم للحرارة يطن من حين الى آخر ، وذلك متى برد وعاء من الاوعية الملأى بالسوائل ، برودة بطيئة غير محدودة الزمن ، تقل عن بلى درجة كل ٢٤ ساعة . وترى الاشكال البلورية التي تتولد في ذلك السائل ، تتشكل تدريجاً بحيث يستطاع تمحيصها جيداً في حالة نقاوتها . وتشاهد اولئك العلماء القائمين بالتجارب مرتدين بيدطهم البيض في احدى الحجر الخفية الداخلية الخاصة بالسحر الكيميائي ، محاولين وضع تلك البلورة في آلة غريبة من النحاس الاصفر تسمى المقياس الضوئي للزوايا optical goniometer ليستطيع احدهم التطلع اليها من عين المرتب لقياس زوايا واجهات تلك البلورة الشبيهة بالجوهرة

ثم ترى عاملاً آخر في حجرة مصفحة بالرصاص واضعاً انبوباً زجاجياً مملوءاً بالبلورات المسحوقة ، وذلك في انبوب قوي من أنابيب الشعة وتجن حيث ينطلق فيه تيار كهربائي شديد الضغط يفوق ١٠٠٠ فولط ومن ذلك الانبوب انفرغ من الهواء ، تتولد صورة طلية تدل على التكوين الداخلي لتلك المادة الكيميائية الحفية ترسم على شريط فوتوغرافي

ويقوم العلماء أيضاً في مدينة لوس انجليس بتجارب يتوخون بها ، انتاج مواد بينة تكاد تصل بهم الى كشف سرّ الحياة . وعلاقة تلك المواد التفيسة بالبروتينات البشرية ، مثلها في الدقيق والخبز وتعني بها حوامض الأمينو [1] وهي اللبنات التي تبنى بها البروتينات . وقصارى القول ان البروتينات نفسها هي المكونة للمادة الاساسية للجلد والشعر والدم والعضلات أي أنها المادة المصنوعة منها الكائنات البشرية

والخلايا المكون منها الجسم البشري ، وهي تعدّ بالبلايين ، تؤلف من كريات من مادة البروتوبلاسمة (الحيلة) ، الشبيهة بالطلام ، وهذه أغلبها من البروتين

إذن تركيب البروتين من أعوص وأروع الاعمال الكيميائية التي لم يظفر بها امرؤ . بيد ان العلماء المتقدمين قد حزأوا البروتين لإبقاء الوقوف على كنهه ، فمهّدوا الطريق لكل متقدم يستطيع غداً جمع البروتين في أنابيب الاختبار

وقد توسل أولئك العلماء الى مباحثهم الكيميائية بمواد غريبة أشبه بما يستعمله السحرة في مغاراتهم ، منها ما تطبخه المعامل الكيميائية المصرية في أنابيبها وهي بزر قرع الكوسى واسماه السمك ، وبيض الدجاج ، والحنطة ، وشعر الخيل ، وريش الوز وغيرها . فتمكنوا باغلاء تلك المواد ، ممزوجة بالاحماض الكيميائية ، من تجزئتها أجزاء دقيقة واستخرجوا منها مادة أشبه بالبروتينات تسموها حوامض الأمينو . وهذا الاسم الغريب يدل الكيميائي على الصفة المميزة للمركبات النيتروجينية التي تحويها تلك الحوامض

وغدا اكثر العلماء يتساءلون : — أهذه المواد الحديثة الاكتشاف ، هي الحلقة المفقودة بين مملكتي المواد الحية والمواد غير الحية ، التي هي ضالة الباحثين منذ زمن طويل ؟ فلم يسعهم إلاّ ان يواصلوا اختباراتهم حتى ثبت لهم ذلك يقيناً ، ودلهم التحليل الذي عمل بأشعة رنتجن على كون الجزيئات البروتينية التي توجد في المواد الحية ، هي في منزلة شبكة معقدة او سلسلة من تلك الجزيئات مؤلفة من حوامض الأمينو . وبمزج تلك الحوامض المختلفة بعضها مع بعض يتألف منها ملايين من البروتينات ، تربي كثيراً على ما تنتجه النباتات والحيوانات في الكرة الأرضية

ويلفت من ضرورة هذه الحلقة الكيميائية المفقودة للحياة ، المساة بحوامض الأمينو ، ان

(١) راجع ما نشرناه في هذا الصدد في مقتطف نوفمبر سنة ١٩٣٨

جميع الحيوانات بما فيها الانسان ، تهلك سريعاً متى حرمت من التموّن الدائم بها . ومع ذلك لا يستطيع انتاجها انتاجاً طبيعيًّا غير النباتات ، وذلك من المواد المجردة ، إذ هي تجذب النيترات من التربة ثم تستخلص النيتروجين من تلك المركبات وتمزجهُ بالحامض الكربونيك والماء ، فتتألف منها حوامض الأمينو . ومن تلك الحوامض تتكوّن شتى البروتينات النباتية . اما الحيوانات فعاجزة عن القيام بمثل ذلك العمل العجيب . ولا بدَّ لها من التغذي إما بالنباتات واما بحيوانات اخرى نباتية الغذاء ، وذلك ليتسنى لها احراز حوامض الأمينو الضرورية لحياتها . ومتى تغذّى المرء بالبروتينات النباتية او الحيوانية الأصل ، قامت حالاً السوائل الهاضمة في جسمه بتجزئة تلك البروتينات الى عناصرها الاصلية وهي حوامض الأمينو ، وتولّت مجاري الدم توزيعها على نسج الجسم حيث تؤلف ثانياً البروتينات الحيوانية الخاصة في النسج المختلفة ، فتساعد على تكوين خلايا جديدة لتحل محل الخلايا التي تندثر دائماً من الاستهلاك الناشىء عن الوظائف الحيوية

ولتلك الحوامض العجيبة وظيفة اخرى حيوية وهي توليد الاثوار (الهرمونات أي الرسل الكيميائية) التي تجول في الجسم مسرعة لتنظيم نموّه وتكوّن فيه الشحم وغير ذلك . ثم ان يوديد من الأوقية من احد حوامض الأمينو الذي يسمى ثيروكسين thyroxin وهو مركز في الغدة الدرقية تميز الانسان السويّ من البليد أو المبت فلا غرو اذا طمح الكيميائيون الى اكتشاف كنه تلك المواد الكيميائية الجليلة الشأن وقد اكتشفوا منها ، وتمثّلوا ، حتى تحرير هذه السطور نحو ٢٢ نوعاً مختلفاً . ومنها كثير يحتوي على الثيروكسين المركب تركيباً كيميائيًّا

وتستخرج أنواع اخرى وتغسى ، وذلك من البروتينات الطبيعية مثل زلال البيض (آلحهُ او بياضه) والهلام والجيلين . ويعدُّ مختبر الدكتور ضن Dr. Dunn مصنعاً مصغراً ينتج منهُ كل ما تحتاج اليه سائر المختبرات العلمية حيث تجلّى خواصها المدهشة

ومن العناصر الكيميائية لتلك الحلقة المفقودة ، مادة السيستين cystine التي ثبت تأثيرها العجيب في إنماء الشعر ، بحيث ان الغنم التي تعلف بها ، تنتج صوفاً اجزل وأجود مما نمو عادة على قرائها . ثم المادة المركبة المسماة الحامض الجلوماتيك المرموز لهُ بحرف د d-glutamic acid وهذه اذا مزجت بالاطعمة اكسبتها طعم اللحم . ويباع منها كل سنة ما يساوي ملايين من الريالات وذلك للشعوب الشرقية التي تشتهي اكل اللحوم ، فتحول دونهُ عقائدها الدينية التي تحظره عليها . ومادة الجليسين glycine التي ثبت ان تناول بضعة غرامات منها يومياً ، تعاون على شفاء داء الضعف العضلي myasthenia gravis

واعظم مما تقدم ايراده خاصًّا بالبحث في سر تركيب الاطعمة بالوسائل الكيميائية

ان العلماء طالما حاولوا باتتاج أغذية صناعية في شكل حبوب او اقراص صغيرة غذائية تستوعب كل ضروريات الحياة . وهي المأثرة التي تجعل الانسان نهائياً في غنى عن المصادر الطبيعية التي اعتاد التغذي بها . وتقيه عوائل الجدب والمجاعات . وكل ما يلزم من غذاء الانسان ، مؤلف من ثلاثة عناصر أساسية ، هي الشحم والكربوهيدرات والبروتينات

فالشحوم الصناعية تستخرج من زيت النفط وهي من الحقائق الراهنة . ومنها المادة المسماة انتروفين stearine وقد استعملت كجزء من غذاء الصابين بالبوتو الكري

اما المواد الكربوهيدرات مثل النشا والسكر فصنعها من اصعب الامور . ومع ذلك فقد أعلن باحث بريطاني منذ بضع سنوات وهو السر بايلي Professor E.L.Bailey الاستاذ في جامعة ليفربول ، شيئاً ادهش الدوائر العلمية وهو استطاعته تركيب الكربوهيدرات من الحامض الكربونيك (وهو الغاز الذي يتولد من احتراق الكربون) والملح المعدني المعروف باسم نيترات البوتاسيوم والماء . وذلك انهُ عالج تلك المواد المجردة بالاشعة التي فوق البنفسجية ، فانتج له اولا انتاج مادة سكرية اشبه بالجلوكوز (سكر العنب الطبيعي) ثم اردفها بغيرها من المواد السكرية والنشوية . فاضحى صنع المواد الكربوهيدراتية ، بالوسائل الكيميائية ، من الاعمال الميسورة ، ولم تبق بعد ذلك الا عقبة واحدة كأداء وهي البروتينات

وقد جرب الباحثون الى الآن الاغذية الصناعية في تغذية الحيوانات التي يستخدمونها في مختبراتهم العلمية فتبينوا وجوب اضافة قليل من اللحم الطبيعي ، او عصارته الى تلك الاغذية الصناعية والا استهدفت الحيوانات التي تحت مراقبتهم ، تدريجياً للموت جوعاً

فتساءل العلماء قائلين ، (هل حوامض الأمينو الصناعية ، التي تحولها الحيوانات نسبها الى البروتينات التي تلزمها ، تسدُّ ذلك النقص ؟)

فجرب الباحثون في جامعة ايلينوي ، تغذية الجرذان البيض عدة أشهر ، بتلك المواد الكيميائية المكونة للبروتينات الصناعية ، فكانوا يغذونها بكل مادة منها على حدتها مدة معينة ثم يسجلون تمزها ، الواحدة بعد الاخرى . فاضطروا حينئذ ازاء تلك النتائج المتباينة ، عقب تركيب سبعة عشر حامضاً صناعيًّا واضافتها الى غذاء تلك الجرذان ، الى مزج الغذاء اخيراً بالبروتين الطبيعي ، بعد أن حرمت منهُ الجرذان اذ تبينوا ضرورة اضافة بعض عناصر حيوية أخرى الى ذلك الغذاء ليفي بالغرض المقصود ، فزاد الباحثون حامضاً ثامناً عشر وهو حامض أميني من فصيلة الحوامض التي تتولد في الزبد حينما يزنخ butyric acid (والحامض البوتيريك هذا يعمل من الزبدة بالغلي مع البوتاسا الكاوية) فكان هو العنصر المفقود ! اذ نمت الجرذان من بعد التغذي بذلك الغذاء الجديد . فكان اول حادث في التاريخ نجح فيه الكيميائيون في تركيب

طعام من النوع المكوّن للبروتين مع خلوه من العناصر الطبيعية أيًّا كانت

اذن من الميسور الآن للكيميائيين صنع جميع المواد الثلاث التي في الأغذية الطبيعية. فاذا استطاع الكيميائي ان يصنع الفيتامينات، ولدينا من الاسباب ما يحمله على الاعتقاد ان صنعها ليس متعذراً، بات في وسعه ان يركب في معمله طعاماً صناعيًّا كاملاً. فلا يبقى امام الكيميائيين الذين يقومون بتقليد احمال النبيذ العجيبة، الاّ تحويل حوامض الامينو المكونة للبروتينات حتى تصل الى درجة اتقان البروتينات الناضجة التي في نسج الحيوان والانسان. ومثلهم في ذلك مثل الميكانيكي الذي يريد تركيب آلة بخارية، فلا بد لهُ من دراسة المراجل والاسطوانات والمكابس. فيجب على الكيميائي ايضاً الذي يبغي تركيب البروتين ان يضع الاساس اولاً وذلك باكتشاف كل ما يتيسر لهُ من متعلقات حوامض الأمينو المؤلفة لهُ. وهذا هو السبب الذي من اجله يقوم علماء لوس انجليس باذابتها في سوائل شتى ثم دراسة طرق سلوكها في الاحماض والقلويات — واطلاق الحرارة والضوء وأشعة رنتجن وغيرها من ضروب الاشعة عليها، وكذلك دراسة ألوانها وخواصها الكهربائية، بالمقاييس الحساسة ثم فحص اشكالها المتبلورة بالميكروسكوب. ومتى أيقنوا من خواص كل منها وسهل عليهم الحصول عليها، سارعوا الى ضم بعضها الى بعض وجعلها منتجات مشابهة للمنتجات الطبيعية

ولو نجح أحدهم في ذلك القصد، لبلغ اعظم شهرة في تاريخ العلوم. ولسنا نستطيع الآن التكهن بما سوف تنتجه مخابرات الكيميائيين من تلك الأغذية. انتهى ما قالته مجلة العلم العام الاميركية

واليك ما قالته حديثاً في هذا الموضوع مجلة انكليزية علمية أخرى صدرت في اغسطس ١٩٣٩ :—

يبذل علماء العالم في هذه الآونة قصارى جهودهم في أشق مهمة عرضت لهم من قدم، وتقصد بها، تحضير غذاء بشري مستوفى الشروط، وذلك من المواد الكيميائية المألوفة. ومما يجدر ذكره في هذا المقام انهم قد ظفروا من قبل، بتغذية الحيوان ردحاً من الدهر بالمحلولات الكيميائية، ولذلك غدوا يتوقعون بلوغهم تلك الامنية القديمة، في السنة القادمة وهم يحسبونها آخر حلقة في سلسلة مخابرهم العلمية

فاذا تحققت مقاصدهم، كانت ثاراً للانجاب، اذ تقضي الى انتفاء غوائل الجدب والموت جوعاً في ارجاء العالم. حينئذ يختفي شبح سوء التغذية فتعزز المصادر الحالية التي تتكون منها، دون غيرها بمصانع ضخمة لصنع الأغذية الكيميائية تنتج صنوفاً شتى من المأكولات الصناعية تعد بالالوف، لذيذة الطعم، مستوفاة الشروط الغذائية اكثر مما ألفناه في الاطعمة حتى اليوم

وان كنت ممن يخالجهم الشك في ذلك، فيبقى ان تصغي الى ما سنقصه عليك فيما يلي، فتدرك الشأو الذي بلغهُ اولئك العلماء في تحقيق أمانيهم

فطن العلماء من زمن بعيد الى كون الغذاء البشري ، يجب ان يؤلف من ثلاثة عناصر أولية وهي الشحوم والكربوهيدرات والبروتينات . ورأوا ان الصنفين الاول والثاني ، قد تيسر من قبل انتاجهما بالصناعة . إذ أمكن استخراج أولهما من النفط ، وثانيهما من مصادر متعددة ، تشمل مزيجاً بسيطاً من الهواء المتاح، ومواد كيميائية تابعة للأشعة التي فوق البنفسجية فلم يبق لهم مندوحة عن تركيب الصنف الثالث من تلك العناصر الغذائية ، أي البروتينات ، وتعني بها الاجزاء الشبيهة باللحمية في الأغذية . وهذه توجد في اللحوم والبيض والسمك والحنطة ، ومنها تتكوّن خلايا الجسم البشري التي تبلغ المليارين ، كما تتولد الغدد والانسجة والعضلات، ومن دونها تغدو الحياة مستحيلة

ولكن من سوء الحظ ، ان صنع البروتينات من أصعب الامور . ومع ذلك شرع العلماء في تركيبها . فجربوا تجارب تفوق الحصر بأصناف من المركبات المستخرجة من اللحوم والسمك والبيض والحنطة والشعر والريش، وجميها مواد بروتينية . فاغلوها في بوتقات ومزجوها بالحوامض فنتجت منها مقادير تذكر من البروتينات وعند ذلك استقرّ رأيهم على كون البروتينات مؤلفة من جسيمات سموها حوامض الأمينو . وقالوا إن الجزيء الضخم من البروتينات مؤلف من عشرات من جزيئات الأمينو ، فتحروا اكتشاف حوامض الأمينو المختلفة الانواع ومزجها بعضها ببعض بنسب مختلفة

ورأوا ان النتيجة التي تنتج من تلك العملية ، تكون بروتينات جامدة صالحة للغذاء ، ذات أنواع شتى . أي ان العامل الكيميائية ستتمكن من انتاج أغذية كثيرة مختلفة الطعوم والنسج . وبذلك يفوق العلماء الطبيعة في أخص مبتدعاتها . وهذه هي الخطوة الاخيرة التي خطاها العلماء في سبيل تركيب الغذاء . أما البحث المدهش بأجمعه ، فقد حدث من وقت قريب وذلك في جامعة ايلينوي وهي من أهم المراكز التي تبحث في الطعام الصناعي، حيث قام الباحثون بتغذية الجرذان عدة اشهر بحوامض الأمينو المختلفة المزيج ، إذ استعملوا منها في وقت واحد سبعة عشر حمضاً وكان ينقصها في كل مرة شيء حيوي

فكانت الجرذان تنفق ، ما لم يضف الى غذائها طعام عيني . وفي ذات يوم يئس شاب من الباحثين فأضاف الى غذاء الجرذان حامضاً مجهولاً حديث الاكتشاف ، فنمت واستمرت على تلك الحال عدة اشهر مقتصرة على ذلك الغذاء دون غيره . ومن ثمة تمّ اكتشاف الطعام الصناعي

***

أجل إن هاتيك العناصر لما تركب على شكل بروتينات جامدة لذيذة الطعم بحيث أستطيع أنا وأنت تناولها على مائدة العشاء اليومي . بيد ان الكيميائيين انتزعوا حق الاقتناع انهم قد

اكتشفوا أخيراً العناصر المفقودة لأنها أتمت طوم الحيوانات اي بروتيناتها

يحتوي الطعام الخارق الثاني ماثلاً متوسلين اليها بالمواد الكيمائية المأمونة فقط وحيثما يوجد حقيقة الطعام الصناعي المستوفي الشروط كما أتيح من قبل صنع الشحوم والكربوهيدرات والفيتامينات تصبح المجاعة في خبر كان ، وبتعبير آخر غير فني نقول ان الخبراء الآخرين يتوسلون بوسائل شتى لانقاذنا من عجز الغذاء في إبان الحرب اذ عجز الطعام من الامور الخطيرة جداً ، والاغذية قابلة للتلف ، ثم انها تستغرق فراغاً عظيماً ولذلك بحثوا عن طريقة دائمة تقلل الفراغ اللازم لخزن الاطعمة حتى اهتدوا اليها

قال الكاتب الانكليزي الذي نقلنا عنهُ هذا المقال : وقد عرض عليَّ أحد الخبراء حديثاً ثلاث قوارير صغيرة تحتوي كل منها على أوقيتين من المسحوق قائلاً أترى فيها شيئاً فريداً ؟ فقلت كلاَّ ، فابتسم الخبير قائلاً : « ان ذلك المسحوق الاحمر يحتوي على رطل من شرائح لحوم البقر وغيره ، والثانية تحتوي على ٤٠ خسة . والثالثة على ٤٠ رأس من الاسماك ! اذ نحن نستخرج من الاغذية جميع عناصرها غير الضرورية ، ونحتفظ بالعناصر المغذية فقط حتى لا يضيع منها شيء ذو منفعة » . وسر هذه العملية المدهشة التي ستحدث انقلاباً عظيماً في طريقة خزن الاطعمة ونقلها من مكان الى آخر ، قد اكتشفهُ احد الربابنة ، وذلك انهُ فطن الى حقيقة كون أغلب الأحمال التي تنقلها بواخره يؤلف من مياه لا نفع فيها ، وتشغل في المركب فراغاً غنياً وتهيطهُ وتكلف صاحبها نفقات فادحة لاجل نقلها . فعقد ذلك الربان نيته على اختراع وسيلة لاستخراج المياه من تلك الأغذية النضة فنجح . وبذلك نقص حجم وسق مركبه نقصاً كبيراً ولم تفقد الأغذية طعومها

والطعام المجفف ينبغي ألاَّ يكون مسحوقاً في جميع الاحوال اذ تبقى شرائح اللحوم والخس بعد تجفيفها محافظة على شكلها الطبيعي ، ولكن المسحوق يقلل الفراغ اللازم للخزن بلا شك . وحتى وضعت الفاكهة المجففة في الماء استعادت شكلها وطعمها الطبيعيين . فالشليك مثلاً اذا جفف انكمش وقل ثقله فاذا ما اضفت اليه الماء ثانياً عند الحاجة ، تذر عليك ، التفريق بينهُ وبين الشليك الحديث القطف من شجرته . وستسفر هذه العملية عن جعل مخازننا وبواخرنا المعدة لنقل البضائع تسع عشرة امثال ما تحمله الآن . وهذا ما يكفل ايضاً منع اكتظاظ الاسواق بالفواكه والخضراوات فوق حاجتها ، ويسهل وقايتها وخزنها حتى تمس حاجة الأسواق اليها . وستجلى في زمن الحرب منافع اخرى للاطعمة المجففة للقوات المحاربة اذ يتسنى نقل المؤن بكل راحة من جهة الى أخرى دون ان تمس بها الطرق الحديدية . وحينئذٍ يمكن تموين كل جندي بغذاء مكثف قد يكفيه أسابيع اذا اقتضت الحال . اذن في وسعنا ان نسمي بحق الطعام المجفف اختراعاً من المخترعات التي نشأت عن الضرورة (والحاجة ام الاختراع او الحاجة تفتق الحيلة على قول العرب) وهو احد اركان الرفاهية

ثم استطرد الكاتب الانكليزي حديثه فقال « وقد أكلت في السنة الماضية ، حينما كنت في نيويورك ، هليوناً وشليكاً في غير موسمها ، فأعجبت طعمها لذيذاً كأنها فطّان فلم يسعني الاّ ان عاتبت مضيفي على تبذيره ، ظنّاً مني انهُ أحضر لي بالطائرة ، تلك الاشياء اللذيذة الدالة على الترف ، في غير أوانها » فقال « حاشاي ان أطلبها بالطائرة ، بل هي من مواسم الصيف الماضي ثم خزنت في مخزن التبريد الى اليوم » فكدت لا أصدق قوله مع كونه حقاً

واخترعت طريقة جديدة تسمى «التبريد السريع» وبها تبرد عاجلاً الخضراوات والفواكه والدجاج وغيرها من عشرات الاغذية ، الى درجة منخفضة ، دون ان تخترق نسجها الدقيقة ، بلورات الجمد الذي يتكون فيها وذلك بعكس الطريقة الحالية للتبريد . فيتسنى ابقاء مواد الغذاء الى اجل غير مسمى في مخازن التبريد المعتادة في المتاجر والحوانيت ثم يذاب جمّها الثلج عند الحاجة . وذقت كثيراً من الاطعمة المثلجة بالطريقة السريعة فلم أستطع قط تمييزها من الاطعمة الجديدة وكذلك اكلت طيوراً ولحوماً مثلجة فظنتها حديثة الذبح

وشرع علماء الزراعة والكيمياء حديثاً في بريطانيا وأميركا وغيرهما ، في القيام بتجارب من أغرب ما جرى في هذا القرن وهي زرع النبات بلا استعمال التربة لا باتها (وقد وصفها صديقنا رئيس تحرير المقتطف في غير جزء من أجزائه)[1]

وفي المعامل الكيميائية والمصانع ينتجون محصولات نجيبة من المواد الكيميائية ، وذلك في صوان معدنية ملأى بالمواد الكيميائية بل هم يدرؤون الامراض وأوبئة الحشرات والآفات بالمواد التي يضعونها في معاملهم . وقد ذكرت لفظ (التجارب) تجوزاً ، ولكنها في الحقيقة أعمال جاوزت حدود التجارب بمراحل إذ تمكنوا في اميركا وانكلترا ، حيث تكون الطماطم والشليك والخس وزهر نبات السحلب وغيرها من الازهار نادرة الوجود ، من زرعها زرعاً تجاوبيّاً بلا تربة . والحقول الصناعية المستعملة لتلك الغاية هي أحواض من الخرسانة قليلة الغور ، ويملأ نصفها بمحلول كيميائي من الأملاح الضرورية التي توجد في الأرض الحقيقية وبسط فوق المحلول الكيميائي حاجز من الدلك ، يحمل طبقة من التبن الرطب ، وفي تلك الطبقة تغرس البذور ، فاذا ما انقضت بضعة ايام ، بلغت جذورها الصغيرة المحلول الكيميائي في اسفلها حيث تتلقى غذاءها . ومتى أتيح اعداد التربة الصالحة المستوفاة الشروط أمكن انتاج انتلات الجزيلة المقدار وذلك بتغيير المواد الكيميائية . وقد تسنى للباحثين انتاج ٤٥٠ رطلاً من الطماطم من حوض نموذجي مساحته ٢٥ قدماً أي بمتوسط ٢٠ رطلاً من كل غرس

(١) راجع مقتطف مارس ١٩٣٩ صفحة ٣٠١ (نبات بلا تراب) وابريل ١٩٣٩ صفحة ٤٠١ (الاساليب العلمية في زراعة النبات بلا تراب)

ناحية المجون

في الأدب العربي

لسليم خياطه

لكل أمة عظيمة ناحية ماجنة حتى الخلاعة في أدبها . لكن ربما لم تكن هناك أمة بلغت لغتها في أدبها المجوني ما بلغتهُ لغتنا في آدابنا العربية والاسلامية . ويبدو ان شدَّة طابع هذه الناحية في هذه الآداب تأثرت بعاملين ، الاول : إساءةُ الاستعمال الطارئة في الحياة الاجتماعية للفكرة الواقعية البديعة : « لا عيب في الدين » . والثاني : ما في اوصاف الملذات المحلَّلة للصالح في الجنة من إغراء غير الصالح بتحليلها ، وبالمُسَاهلة فيها بحسب طبعهِ علاوة على ذلك ، ثم بعدم الشعور ، وفقاً لمبدإٍ يأتيهِ من تحقيقها على الارض . فاذا كانت جائزة المؤمن لذَّات ناعمة في آخرته ، فلماذا لا تكون له ، وهو دائماً مؤمن — ومن غير زندبق لا يعتبر نفسه مؤمناً — هذه الجائزة في الحاضرة والأمر أحسن ، كما فيهِ كسبُ الجنَّتين ، وإحداهما نقد على منطق الحياتي الضحوك ؟ ....

ثم كانت هناك امور كثيرة تنظر إليها اليوم كأشياء أصبحت ، على السموم ، غريبةً وبعيدةً عن حياتنا الاجتماعية ، ولكنها كانت يومذاك طبيعية مقبولة ومرتبة في النظر والتمثيل وقواعد الحياة المدنية وسهلاتها: من تعدُّد زوجات، ورق عاطلي رفيق بالقياس الى الرق الروماني، وانعدام الحالة والفكرة [1] الاجتماعية الحديثة وهذه امور كانت تربة مؤاتية نوعاً ما لافراط النمو في هذه الناحية من آدابنا العربية . واما المدنية الفارسية والروسية (البزنطية) فليست هي العامل الخلقي او الاجتماعي او الحقوقي فيما ظهر من هذا في الحياة العربية وآدابها . بل انها قدمت المادة اللازمة من مادٍ وسبي ومعرفة احتكاكٍ واختلاطٍ وتشبهٍ بالحضارة السابقة السامية ، فالاستعانة بالفن في الترف والتلذُّذ ، حياة وادباً ، اكتسابٌ منها

---

(١) بخصوص الفكرة تجد بذوراً كثيرة منها بل وأزهاراً نامية نمواً يستوقف النظر في المدرسة العقلية الاعتزالية ، المبنية على اعتبار المسئولية الفردية استناداً الى النظر القدري في الوجود وهو عكس روح الجبرية الدينية في الاسلام . وتجدها كذلك عند الخصوص ، في خصم المعتزلة أيضاً ابن حزم ، اكبر نظريي الاسلام بمثلية عملية كما يبدو ، ومن ثم في مفكرين وأدباء وفلاسفة كثيرين غير هؤلاء

خرج الاسلام من بداوة الجاهلية . ولنا في الجاهلية أدلّة متناية على بدوره هذا الميل الى الماجن المتطرّف . ففي امرىء القيس وحده مثل جدّ موفق . وفي كثير من حياة الجاهلية وعاداتها وتعبيرها ما يشير الى وجود نظر ماديّ عندهم إلى ما قد نعبر بعضهُ اليوم تماجناً خليعاً وامور لا تخرج عن حدود شهوانية غير خفيفة . وهذا نظر إنما هو عاديٌّ منهم ، وإنما هو على الاكثر مصطبغ بشعور الفكاهة — فكاهة « وابيله » — او بملاطفة شعر تتراوح ما بين حامية وبين إغريقية الروعة فيما تجلب به اكثر الملهيات الشعرية من جمالٍ رخاميّ ، مرمريّ ، مبتردٍ ، بليل . بل كأنما كثيراً ما ننظر اليوم الى شبانٍ خفافٍ مستهترين كأفذاذٍ وأبطالٍ « دون جوانيين » يحسدون على حظوظهم الطيبة ومواهبهم المجونية ، كذلك كانت الجاهلية تنظر الى مشهوري سكّيريها وتبّاع ملذاتها . ففي أخبار ملوكها في الحيرة واليمن وبصرى ما يشبه ، مع حفظ النسبة ، ولكن بدون نظر استكبار لملوكهم يومذاك ، طرفاً من أخبار يزيد والوليد وسواهما من خلفاء بني أمية وبني العباس وكبار الاشراف والولاة وملوك الطوائف وفي قائلها أمثال المهلهل والأعشى كوالبة في الاسلام والأخطل ومطيع وأكثرس قال شعراً من بعد في غير الحكمة والمواعظ والمراثي والمدائح والوصف . ففي الجاهلية ، طرفة ، أليس هو القائل :

إذا القوم قالوا : « من فتىً ؟ » خلت أنني ... عُنيتُ ، فلم أكسَلْ ولم أتبلّدِ
ولستُ بحلاّلِ التلاعِ مخافةً ، ... ولكن متى يسترفد القومُ أرفدِ
وإن تبغني في حلقةِ القوم تلقني ... وإن تلتمسني في الحوانيت تصطدِ !
متى تأتني أصبحك كأساً رويّةً ... وإن كنت عنها ذا غنىً ، فاغنَ وازدِدِ !
نداماي بيضٌ كالنجوم ! وقَيْنةٌ ... تروحُ علينا بين بُردٍ ومجسّدِ
إذا نحنُ قلنا : « اسمعينا ! » انبرت لنا ... على رسلها ، مطروقةً ، لم تشدّدِ
زجيرٌ لطابُ الحيبِ منها ، رفيقةٌ ... بجسّ الندامى ، بضّةُ المتجرّدِ
وما زال تشرابي الخمورَ ، ولذّتي ، ... وبيعي وإنفاقي ، طريفي ومتلّدي !
الى أن تحامتني العشيرةُ كلُّها ... وأفردت إفرادَ البعيرِ المعبّدِ ! . . .
رأيتُ بني غبراء (١) لا ينكرونني ! ... ولا أهل هذاك الطراف الممدّدِ ! . . . (٢)
ألا أيهذا اللائمي احضرَ الوغى ، ... وأن أشهدَ اللذات ، هل أنت مخلدي ؟ !
فإن كنتَ لا تستطيع دفع منيّتي ... فدعني أبادرها بما ملكت يدي !

(١) اللصوص (٢) الاغنياء أصحاب ثياب الجلد لا الشعر

فلولا ثلاثٌ هنَّ من عيشة الفتى وجدّك لم أحفل متى قام عُوَّدي !
فمنهنَّ سبقي العاذلات بشربة كُمَيت ، متى ما تُعل بالماء تزبد
وتقصير يوم الدجن (١) والدجن معجب بمكنة تحت الخباء المُعَمَّد !
وكرّي إذا نادى المضاف ، محنَّباً ، كسيد الغضى ذي السورة المتورّد
كريم (٢) يُرَوّي نفسه في حياته ! ستعلم إن متنا غداً ، أيُّنا الصدي ؟ !
أرى الموت اعداد النفوس ، ولا أرى بعيداً غداً ما أقرب اليوم من غدِ !
أرى الدهر كنزاً ناقصاً كل ليلة (٣) وما تنقص الايام والدهر ينفد !

ولعلَّ هذا المتجه القوي في الأدب العربي منذ الجاهلية راجعٌ منذ ذلك الوقت ايضاً إلى ما قد يوافق تسميته بـ « مثالية العكس » . فكما وجد أهل الشمال من الكلديناويين ، وهم في منازل صقيعهم ، صورة جنتهم ومرتع آلهتهم وخالدي ابطالهم في ربوع دافئة ، جنوبية النسيم ، لا تغيب عنها الشمس ، وكما تبلورت عند عرب الجزيرة المثلية في جنان ذات قرٍّ وأنهار ، ثم عبَّرت عنها اللغة العربية والعقلية ، منذ الجاهلية ، في رسم السعادة والراحة غالباً بألفاظ واستعارات وتشابيه وكنايات البرود والرطوبة ؛ كذلك رأى هؤلاء ايضاً ، وهم في شظف عيش أرض جافة فقيرة ، وبقدر قوة الدافع العكسيّ في ذلك (٤) ، سعادة عكس الحال ، في صور مرفَّهة ترفيه انحلال جسمانيٍّ للعيش ، على ما كانوا يتخذون مناظرها الممثلة واخبارها ومتخيلاتها فيما أحاط بها من مدنية فارسية — بيزنطية ، انحلالية ، كانت صاحبة الصولة ومثالاً أعلى لحياة المدنية والقوة الارضية للانسان في زمنهم ومدار اقليمهم

(١) النيم ، والمعنى كثيب رائع الشاحية (٢) يعتمد نفسه بالنفات بديع (٣) اختارت جميع هذه الابيات لطرفة لانها تمثل حالة مثلية تامة تنقص صورتها باقل شيء منها ، ولانها تبين بكل وضوح وروعة تمكنة نظرة متناسقة مكتملة بمعانيها جميعاً على ان الجمال الشعري في جوه الاعلى مهما أكثر منه معاداً ومكرراً لا يكثر مع ذلك ، ولا يزيد الا تمتعاً وتجدداً وجمالاً ينبع من جمال

(٤) يلاحظ نفس الامر في « الف ليلة وليلة » بل وفي الاقاصيص الشعبية عند مختلف الامم عموماً وانما هو في « الف ليلة وليلة » أبرز وأقرب الى موضوعنا . فالسعادة المصورة دائماً بحالة هائلة من الترفه والتنعم ، الذي تكاد الرسوم البالية عن بلاطات الخلافة لا تحوي مثل اوصافه حتى لدور انتجار فيها ، نابعة مثل هذه القصص نفسها من اقرب الاوساط الشعبية ، من « باقودا » (Bas Fonds) القرون الوسطى الغربية ، وفي أصولها السابقة من اوساط هندية او فارسية سابقة شبيهة المرتبة ولا شك . وعلماً مني بمثل هذه الحالة النفسية العامة قلت في تعليق لي تحتي « الاريان » على عبارة « خرقة المتصوف » انها الخرقة للتصوف التي ، وهي ، يقال لها ، السجادة عند « الدرويش » وذلك من قبيل التمثيل فقط لانه لا يصح هذا الاطلاق دوماً في الواقع اذ كثيراً مثلاً ينكر الدرويش خرقته ولا ينكر الصوفي التي سجادته

على انهُ لا مجال قط لانكار أن مجونَ الآداب العربية في الجاهلية وصدر الاسلام أصح طبيعةً ومظهراً جداً منه فيما بعد. فالشهوانية المرَضية السيماء، هي شهوانيـة الترف المدني المفرط، والاسراف الأبّهي القديم، لم تكن قد لتحت آدابنا بعد بصلها الانحلالي الشديد. بل على أقصى خلاعة الجاهلية طابعٌ أصيلٌ من حلو السذاجة الفطرية هي دائماً عذبة، فكهة، لطيفة الخشونة البدوية، وجميلة في غاية الجمال، في أروع مرتبة كلاسيكية خالدة منهُ، في قرائنَ من الجمال الخالد لامةٍ بدوية أخرى كانت تهيأ لوثبتها: جمال الأوذيسة والالياذة. بل في بعض الشعر الجاهلي، في امرىء القيس مثلاً ملمسٌ من « فيڤيس ميلو ». عريٌ كامل، وغلمةٌ متكبرة. جمالٌ نويٌّ، صلبٌ، جزلٌ. جمالٌ ليس المجون فيه تهتكاً متدنياً. ليس مبتذلاً. ليس مقلداً ولا يقلد

***

آدابنا في الجاهلية وصدر الاسلام لا تقابل من أي وجهٍ مجوني بنازع الشهوات اللاحقة فيما بعد. المجون وما يلحقهُ عند العربي الأول نظيف العقلية والشكل معاً، رُجوليٌّ، شعبيٌّ، بدويٌّ، طلقُ الحيّا، ساذج وفلسفي الطبع مع ذلك، عليه علامة حرية البادية، نورٌ ذهبيٌّ من شمسها، طرارةٌ عميقة النور من ليلها، ودُعابةٌ لا مبالية لهوبٌ من هواء نجدها، ومن نسيم الامسية في قراها ومنازل واحاتها الصغيرة تأخذ بترصيعها أضواء القرى، ولا يشبّهُ مجون هذه الآداب وحياتها من وجهٍ بمجون آداب الخلاعة الرومانية او الفرنسية وحياتهما كذلك. بل يشبّهُ المجونُ اللاحقُ منذ زمن العباسيين بها وتشبّهُ به — خصوصاً الرومانية. ثم انهُ أعلى وأجزل فنّا في تعبيره الشعري عن تعبير جميع هذه الآداب الشعري او النثري. وهذه أبيات طرفة التي قدمنا مثلٌ، لا يعوزها لترى ذلك بكل وضوح وإضاءتها الا قليل من الشرح وبعض المقابلات

اننا لا يغيب عن بالنا أننا مع ذلك أصحاب السبق في أخلع التهاجن الأدبي. وفي تهاجن الحياة كذلك أيضاً، والأدب كما أعيد وكُرّر مرآتها، حتى أنهُ ربما حوت المدنية العربية الاسلاميـة في الفعل بعض ما لم تحوه أبلغ مقترفات خلاعة انكليزية أو شيكاغوية او راسبوتينية الشكل، بأقوى حالات هذه في شذوذها وتهتكها او في أصفق منافذات تسترها. أما في الأدب، فلم تبلغ آداب روما القياصرة، ولا آداب الاستهتار الفرنسي، ولا أظن غيرها ايضاً، حداً من حدود أبي نواس او ابن الحجاج، ولا بعضاً من الدسامة الثقيلة في الأغاني وألف ليلة وليلة. كما وأن آداب تلك المجونية كانت محصورة في ناحيةٍ وكنايات معينة كاد كثيرٌ منها أن يكون

كمواضيع خاصة لعامة لقلة انتشار معرفة القراءة والكتابة وانحصار الأدب في طبقة محدودة من الناس . أما سمة الشهوة التي تتسم بها التخيلة والتصورات ، فتجدها متفشية ، مستمرة عادية الأس والتنفس ، في مجرى عام من مظاهر الحياة والآثار الكتابية العربية . واذا أنت فتحت قاموساً عربياً من هذه القواميس الرائجة ، الفيروزآبادي مثلاً ، وأخذت تقرأ فيه من أي صفحة ، لم يطل بك الأمر ، على ما أظن ، حتى ترى في اللغة ، كما صارت على أيامه وكما عبرت عن عقليته وحياة بأصولها ومستحدثاتها ، مصداقاً لما أزعم

***

ويحلو لي ان أمثل على شيء من هذا القبيل بمخطوط طريف رأيته مرة عند كتبي دمشقي قرب الجامع الاموي ، وكان اسمه ، على ما أذكر ، «تحفة العروس» . قال لي الكتبي أن مؤلفه واحد إما يُعرف « بالتجاني » ، وهو دمشقي ، او «البجائي» ، وقد يكون مغربياً ، وأن السبب في هذه الحيرة كون الاسم في مفتتحه على ما يبدو الساعة لذاكرتي ، لم يكن منقطاً . غير أنه يخطر في بالي الآن تحقيق لويس شيخو اليسوعي ، في حواشٍ له على كتاب « طبقات الامم » للقاضي أبي القاسم ساعد الأندلسي ، حول اسم مؤلف عربي اختلف فيه أيضاً بين « تجاني » و « بجائي » . فلعله كيفما صحت هويته ، يكون الذي قصده وذكر كتبه أبو القاسم هو نفس صاحبنا مصنف « تحفة العروس »

لم أستطع يومئذٍ اقتناء هذا المخطوط ، فاكتفيت بأن قرأت الكثير منه عند الكتبي . رأيته على نمق « رجوع الشيخ الى صباه » ولكنه أرق كثيراً . إذ هو كتاب أدب وأخبار على الطراز الجاحظي أو الجوزي . ومواضيعه ، وان كانت كثيرتها في تجهيز لذات الجسد ، الا أنها سكت على أسلوب الفن الكتابي العربي ، فهو إذن كتاب مجهرة ومباسطة من النثر والشعر الأدبي المعروف المتال ، وسمته الخاصة أن أشد غايته باللذات . قد لا يقصد إثارة الشهوة باللذات عمداً ومباشرة ، ولا هو يسرد ضروب فنون الاستمتاع الجنوني وغرائبه فحسب . بل عند مؤلفه هذه المرة الفنية الحسناء في انه يستهدف دقة الوصف وحسن الحديث ، مع ثروة الاخبار والروايات الغريبة والنكات الطريفة ومع ذلك ، فمادة ثرثرته شديدة الوطء من وجهة الاخلاق الجنسية ، كما قد تصح مثلاً ممتازاً على باب المجون في سفر الادب العربي

إنه لمخطوط قروسطي غريب . وهو من احسن الامثلة التي وقعت عليها وأرى تقديمها على صفة المجون في الأدب العربي اللاحق . وليتني حزته يومذاك حتى كنت أضبط الكلام عنه اكثر اليوم.

تاريخ سامرا

— ٤ —

بقلم الكبتن كريزول

استاذ العمارة الاسلامية بجامعة فؤاد الاول
وترجمة السيد محمد وجب عضو بعثة الآثار الاسلامية

الاصول المعمارية

﴿ المئذنة ﴾ من الآراء المسلَّم بها الثابتة ان فكرة بناء مئذنة ذات مرقى حلزوني كمئذنة مسجد سامرا وابي دلف مشتقة من الزيجورات البابلية القديمة ، ولكن هاتان المئذنتان ليستا صورة صادقة للزيجورات اذ أن الاخيرة كانت كلها او جُلُّها رباعية التخطيط بمعنى انها كانت مربعة او مستطيلة بنسبة ٣ : ٢ أضف الى ذلك ان الزيجورات لم تكن جميعها من طراز واحد

وقد أثبتت الدراسات الحديثة لهذا الموضوع ان الطراز الذي كان اكثر شيوعاً من غيره في بناء هذه الزيجورات كان شكل برج مدرج ذي طبقات تتناقص سعتها كلما ارتفع البناء وواجهتها عمودية . ويرقى الى قمة الطابق الاسفل منها بسلم خارجي شديد الانحدار . ويمكن الوصول الى الطبقات العليا باجزاء تعتبر امتداداً لهذا السلم

فاذا فرضنا ان هذا السلم كان يرتفع على ٤٥° فمن البديهي ان يرتدّ كل طابق من البناء الى الداخل مسافة تساوي مقدار ارتفاعه . وليس هذا الطراز هو الاصل الذي بنيت على شاكلته المآذنة الملوية ولكنها مشتقة من طراز آخر مسقطه الأفقي مربع ذو سلّم او مطلع قليل الانحدار يدور حول البناء في دورات كاملة حتى القمة

ومن الغريب انهُ لم يبق من هذا الطراز الا مثال واحد هو زيجورات خرساباد الذي اكتشفهُ بليس Place منذ سبعين عاماً وهو مكوَّن من ثلاث طباق سليمة وبقايا طابق رابع

وقد انتقد بعضهم ملاحظات بليس في هذا الصدد وعارضوا في دقتها وصحتها ، ورفضها كولديوي Koldewey كلية ولكن من الصعب ان نعتقد أن هذه الملاحظات لم تكن في جوهرها صحيحة وهو يقول انهُ بدلاً من ان يجد البناء مستديراً كما كان ينتظر وجده مربعاً تام الزيغ

طول ضلعه ١٠ر٤٣ متر وركنه الجنوبي مبدأ سلم قليل الانحدار سمة درجته متران وعرضها ٨٠ سنتمتراً وارتفاعها ٥ سنتمترات ويمتد هذا السلم على طول الضلع ويدور عند الأركان ثم يستمر صاعداً مارًّا بجميع اركان البرج على التعاقب حتى وجد المستكشفون أقسم ثانية عند نقطة لا يزيد ارتفاعها عن النقطة التي بدءوا منها سوى ٦ر١٠ من المتر

***

كانت واجهات البرج محلاة بمجموعة من البدنات والدخلات وبالحافة الخارجية للسلم آثار مزوّقة وجد بعض اجزائها في نقطين في حالة سليمة تمكننا من معرفة شكل الشرافات التي كانت تحليها. وكان السلم يدور حول البرج على طراز سلم سامرا أي عكس عقارب الساعة كما وجدت ثلاثة ادوار او طباق قائمة ارتفاع كل منها ٦ر١٠ المتر وبقايا طابق رابع. ويتقص طول ضلع كل طابق عن الذي في اسفله بمقدار اربعة امتار لارتداد كل طابق الى الداخل مترين بسبب السلم وقد وجد بليس Place ان الطابق الاسفل كان محلى بزخارف جصية بيض والثاني ملطخ بالسواد والثالث مائل الى الحمرة والرابع مائل الى الزرقة

واستناداً الى الوصف الذي ذكره هيرودوتس Herodotus عن الزيجورات التي بمعبد بعل بابل اعتقد بليس إن هذا البرج كان مكوناً من سبع طبقات ارتفاع كل منها ٦ر١٠ المتر اي ان الارتفاع الكلي للبرج كان يبلغ ٤٣ر٧٠ المتر وهو يساوي بالضبط طول ضلع القاعدة

ومع انهُ لم تتكشف امثلة اخرى من طراز هذه الزيجورات فليس من المعقول ان نعتقد كما فعل كولدويي Koldewey أن بليس Place قد انساق وراء خياله بعيداً ولاسيما انهُ لم يعثر من قبل على بناء مماثل مما يمكن أن يوحي اليه بهذا الرأي اذ ان بليس نفسه يقول بصريح العبارة انهُ انما كان ينتظر أن يجد بناء مستديراً لا مربعاً

ومهما يكن من شيء فأن الوصف الذي تركه هيرودوتس Herodotus عن زيجورات معبد بعل بابل يعتبر القول الفصل في موضوع وجود ابراج ذات سلم حلزوني وفيما يلي ترجمة ما رواهُ هيرودوتس Herodotus منقولاً عن ترجمة رولنصن Rawlinson الانكليزية

قال هيرودوتس:— . . . وفي وسط هذه المنطقة برج من البناء المصمت طوله ½ الميل (اي $\frac{1760}{8}$ = ٢٢٠ ياردة) وعرضه كذلك يعلوه برج آخر. وفوق هذا ثالث ورابع وهكذا حتى يبلغ عدد الابراج ثمانية. ويرقى الى القمة من خارج البرج في ممشى يدور حول جميع الابراج وعند ما يصل الصاعد الى منتصف المسافة يجد مجلساً ومقاعد يستريح عليها الصاعدون الى القمة وفي البرج العلوي معبد فسيح بداخله مقعد كبير الحجم محلى بكثير من الزخارف والى جانبه خوان من الذهب». اهـ

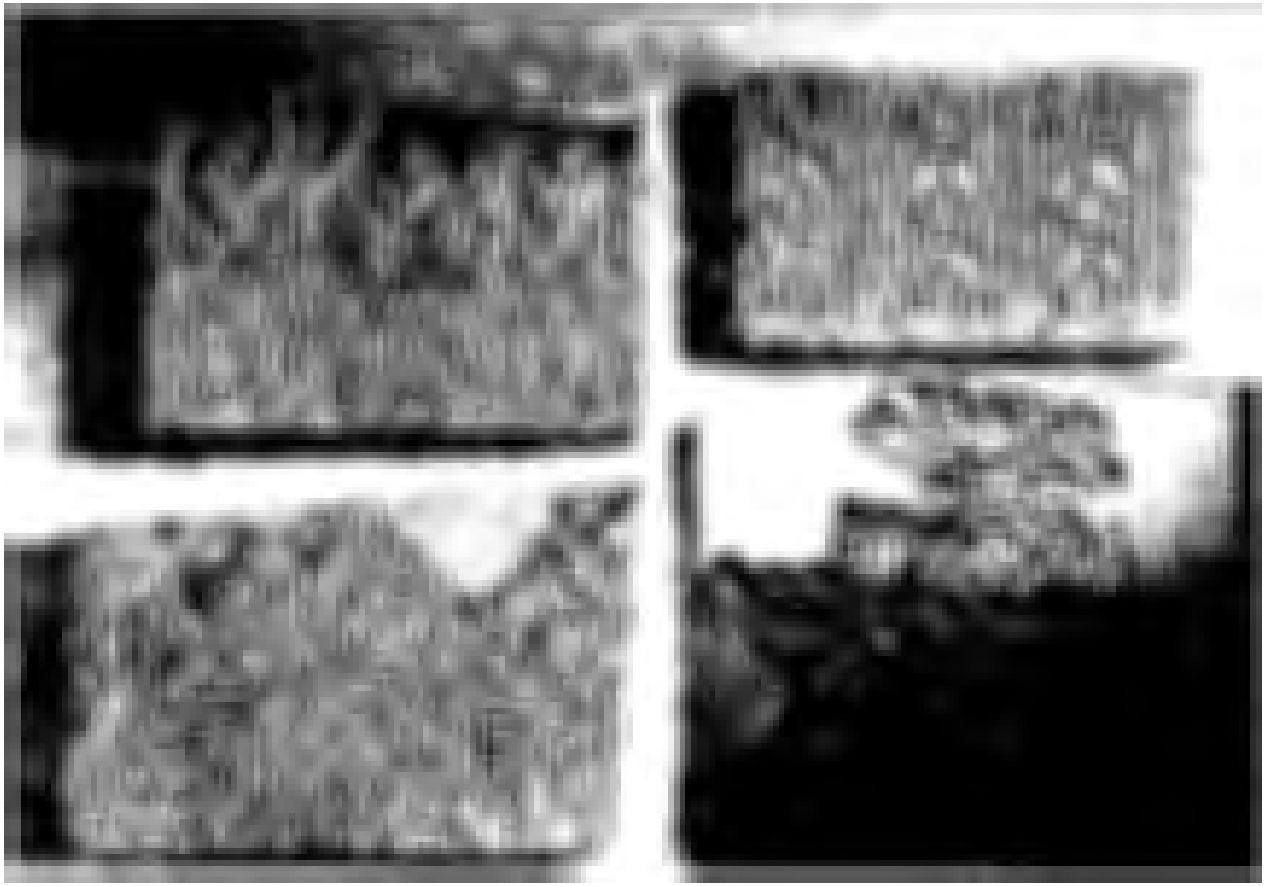

زخارف جصية من الجوسق الخاقاني بسامرا

ويلاحظ هنا أن هيرودوتس يقول ان الطباق كانت ثمانية بينما بلبس Place في اعادة انشائه لزيجورات خرسآباد جعلها سبعة فقط

ولحسن الحظ عثر سميث Smith في رحلته الاخيرة على لوحة تعرف بلوحة ايزاجيلا Esagila وقد نقل نصها على عجل قبل وفاته . وبهذه اللوحة كتابة ترجع الى ٣٢٩ ق.م. وهي وصف حرم معبد وزيجورات بعل بابل وأبعاد طبقاته . وقد عاد كولديوي Koldewey هنا وأبدى كثيراً من الشك قائلاً انهُ ليس هناك اي دليل او اساس يمكن الاستناد اليه في اثبات وجود الابراج المدرجة . وان هيرودوتس نفسهُ لم يقل ان كل طبقة كانت اقل حجماً من التي اسفلها (— يراجع ما رواهُ هيرودوتس وانتقاده فيما سبق وهو القول الفصل في هذه النقطة) وان كان هذا هو المعقول بل الحتم الذي دعت اليه ضرورة مادة البناء نفسهُ وهي اللبن ، لأن استخدام هذه المادة اقتضى ان ترتد كل طبقة الى الداخل اكثر من التي اسفلها لمنع تداعي الطبقات السفلى وانباجها وهذا السبب نفسه كان من المستحيل من الناحية العملية وجود سلم في جوف البناء ولذلك كان السلم حلزونيًّا خارجيًّا »

ولم يكن احد قد اطلع على لوحة المستر سميث Smith او يعرف اين هي حتى استكشف شايل Scheil مقرها عند احد الافراد ونشرها بنصها الكامل . ومن هذا النص يتضح ان طبقات البناء كانت سبعاً تتناقص تدريجيًّا كلما زاد الارتفاع وبالاخيرة منها حرم او مزار الاله

ومع ان هرتسفلد يسلم بأن للمأذنة الملوية بسامرا مشتقة من الزيجورات فانه ينكر او كان ينكر اشتقاقها منها مباشرة معتقداً أنهُ لم تكن هناك زيجورات مطلقاً بالقرن التاسع معروفة معرفة تامة او قائمة في حالة جيدة من الحفظ بحيث يصح ان تتخذ نموذجاً تبنى على مثاله مأذنة سامرا ولذلك اعتقد أن هذه المأذنة مشتقة مباشرة من برج جور (فيروزاباد) الذي وصفهُ فلاندن Flandin وكوست Cost وديولافوي Dieulafoy . وهذا البرج عبارة عن كومة مستطيلة الشكل مبنية بالحجارة غير المنحوتة ارتفاعها ٢٨ متراً بها آثار سلم يدور حول جوانبها الأربعة . وقد أخبرني الدكتور هرتسفلد بعد زيارته لها سنة ١٩٢٤ بزمن وجيز انهُ مقتنع بأن سلم هذا البرج كان يغطيه قبو اسطواني صاعد لوجود آثار عقد هذا القبو ظاهرة في كثير من المواضع . وبناء على ذلك يكون سلم هذا البرج مغطى كنظائره في الابراج الأخرى . ولا يمكن مقابلتهُ بالزيجورات . فاذا كانت ملاحظات ومشاهدات هرتسفلد صحيحة — وأنا أسلم بصحتها — فلا تكون هناك أية صلة قطعاً بين برج جور والمأذنة الملوية بسامرا

على أنهُ لا يمكن القول إنهُ لم يكن في العراق بالقرن التاسع الميلادي اي مثال او نموذج تبنى على مثاله المئذنة الملوية لان زيجورات بابل المذكورة آنفاً كانت لا تزال قائمة في حالة جيدة في

سنة ٣٥٥ ب. م وقد وصفها هاربوكراتيون Harpocration الاسكندري في كتابه Cyranides بل انها كانت لا تزال قائمة في حالة جيدة ايضاً في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي وقد رآها بنيامين التوديلي Benyamin of Tudela ووصف سلمها الذي كان يدور صاعداً حولها

***

اذا ما تقرر ذلك كان من الواضح أن الابتكار الوحيد الذي استحدثهُ المهار في مئذنة سامرا في عهد الخليفة المتوكل هو انهُ نقل فكرة بناء الزيجورات وطبقها بنظام جديد فجعل المئذنة مستديرة بعد أن كانت الزيجورات مربعة

على انهُ ليس من المؤكد ايضاً ان هذا كان ابتكاراً لانهُ من الممكن الاعتقاد الآن بانهُ كانت هناك زيجورات مستديرة ايضاً . وقد تكون بقايا احدها قائمة في البناء « اللبني » الكبير المعت الذي كشف في Al Hibba والذي عارض هلبرشت Helprecht من أجله نظرية Koldewey « الذي يميل الى اعتبار هذا البناء المرتفع اساساً لقبر هام . وهذا البناء عبارة عن برج مدرج ذي طابقين يرتكز على الارض مباشرة وهو بحالته المهدمة التي هو عليها الآن لا يزال يبلغ ارتفاعه ٢٤ قدماً وقطر الطابق الاسفل — الذي يرتفع ١٢ قدماً عن السهل — يبلغ ٤١٠ اقدام بينما قطر الطابق الثاني ٣١٥ قدماً فقط . والبناء مبني كلهُ من اللبن . والطابق الثاني مكسو علاوة على ذلك بطبقة من الآجر والقار والسطح العلوي للطابقين مبلط بهذه المادة نفسها لتسرب ماء المطر الى البناء

واذا ما استثنينا الشكل الدائري الذي لا يمكن مع ذلك ان يعد اعتراضاً جدياً على نظريتي فان بناء الـ Al Hibba به جميع خصائص الزيجورات المميزة لها . وهو في الحقيقة واحد منها »

ومنذ كتب هلبرشت بذلك كشفت بقايا مطلع طوله عشرة امتار في الجانب الجنوبي يرتفع بمقدار متر في كل ١٠٠ متر

ويجب أن نذكر في هذا الصدد ايضاً معبد Paneion بالاسكندرية الذي نبه تيرش Thiersch الى مآله من شأن وقد وصفه سترابون Strabo بقوله « وهنا ايضاً معبد البانيون Paneion وهو أكمة مصنوعة على شكل كوز الصنوبر شبيهة بكومة من الصخر يصعد الى قمتها بمرقى حلزوني »

ويظهر ان طراز المئذنة الملوية كان شائعاً في العصر العباسي الاول ، لأنهُ علاوة على وجود بقايا مئذنة مشابهة لمئذنة سامرا بجوار مسجد ابي دلف قائما نسمع عن برج مشابه لهُ بناه الخليفة المكتفي ٢٨٩ — ٢٩٥ هـ = ٩٠٢/٩٠٨م لاغراض دينية . وتقول الرواية ان هذا البرج كان يرقى اليه بسلم حلزوني قليل الانحدار حتى كان الخليفة يصعد الى قمة البرج راكباً حماره . وبذلك كان يستطيع دون اي عناء ان يشاهد الارباض والقرى المحيطة ببغداد . ويقال ان هذه القبة

كانت عظيمة الارتفاع مستديرة الشكل وتعرف بقبة الخمار مما يدل على انها كانت تعلوها في قمتها سقيفة مقببة

ويظهر أن هذا الطراز انتشر حتى وصل الى الصين حيث كانت تعرف امثال هذه الابراج بالتاي Tai او الهو Hu .وقد ذكر باليولوتسوي Paléologue ان هذه الابراج كانت من خصائص ومميزات المساكن الملكية بالصين من القرن الحادي عشر الى الثالث عشر

وفي باريس مجموعة من الصور الصينية ترجع احداها الى القرن الثامن عشر وبها صورة بناء شبيه بهذه الابراج . على اننا نعتقد انها لا يمكن ان تمثل بناء كان موجوداً فعلاً او انها نقلت عن نموذج حقيقي لأن دورات السلم في الجانب الايسر من البرج تقع في نفس مستوى دورات الجانب الآخر من البرج بعد نصف دورة وفي ذلك مغالطة ظاهرة

وبناء على ذلك لا يمكن الاعتماد على هذا الرسم لانهُ كما قلنا لا يمكن ان يمثل اي بناء كان قائماً فعلاً

﴿ بلكوار ﴾ يعرف هذا الموضع اليوم باسم المتقور ويبعد ستة كيلو مترات الى الجنوب من مدينة سامرا الحديثة عند الطرف الجنوبي بمنطقة الاطلال القديمة وقد وجد هرتسفلد في هذا المكان عقداً قائماً من البناء في وسط مساحة كبيرة من الأطلال واضحة المعالم منتظمة التخطيط مما حدا بهِ الى كشف هذه المنطقة من ١٢ يوليه الى ٩ اكتوبر سنة ١٩١١ وسرعان ما وجد امامه قصراً هائلاً عظيم المساحة يطيف بهِ سور ذو أبراج مستطيل التخطيط طول ضلعه ١٢٥٠ متراً يرتكز جانبه الجنوبي على شاطىء دجلة الذي يرتفع هنا بمقدار خمسة عشر متراً

وفيما يلي ترجمة ما كتبهُ هرتسفلد عن نتيجة أعمالهِ واستكشافاته في هذا القصر وهو على ما نعلم التقرير الوحيد الذي كتب عن ذلك الى الآن : —

« ليس لهذا المربع سوى ثلاثة ابواب تقع في منتصف الحوائط الثلاثة غير المطلة على النهر اي الشمالية والشرقية والغربية (الحائط الجنوبي مطل على النهر) ويخترقه شارعان رئيسيان متقاطعان على طريقة المعسكرات أو التكنات الرومانية والمساحات التي بين الشارعين في النصف الشمالي مزدحمة بالبناء . وقد لوحظ في تخطيط الابنية وتوزيعها داخل المربع مع مراعاة مجرى الماء القديم

والقسم الجنوبي الغربي من الشارع الاعظم الى جانب النهر يشغله مستطيل ذات مساحته ٤٦٠ × ٥٧٥ متراً بهِ حصن يطيف بهِ سور ذو ابراج وهو يمتد من شاطىء النهر الى نقطة تقاطع الشارعين

اما القصر فله مدخل واحد في وسط جانبه الشمالي الشرقي وهو يقع في منتصف المساحة

بالضبط عند تقاطع الشارعين. وينقسم القصر ثلاثة اقسام متوازية كما في قصر الطاشق بسامرا ايضاً وبالقسم الاوسط منهُ نجد على الترتيب :— المدخل ورحبة الشرف وقاعات العرش. والرحبات في بلكوار ثلاث. اما القاعات وعددها تسع فهي مرتبة على شكل صليب. وقد روعي التناسق والتشابه التام على جانبي محور القصر . وغرف العرش مفتوحة على الرحبة الثالثة كقاعات كبيرة كما أنها مفتوحة ايضاً على النهر

وهناك حديقة خارج خط حائط الحصن يحيط بها سور ذو دعامات أو فصوص وينتهي عند الشاطىء نفسه بسقيفات غنية بالزخارف . والى جانب الحديقة مرفأ للسفن وفي وسطها حوض للماء

***

والواجهات المطلة على الرحبة والحديقة ذات ثلاثة عقود كما في بيت الخليفة وقصر المشتى وقد اشتقت هذه الواجهات ذات الثلاثة العقود والتي عقدها الاوسط يزيد في اتساعه وارتفاعه عن العقدين الجانبين من ابواب الشوارع الهلينية (الاغريقية) القديمة وأقواس النصر الرومانية . ويظهر ان القاعات ذات المداخل والواجهات المماثلة كانت معدة للاستقبالات العامة كما يتضح ذلك من دراسة نظائرها في القصور الشرقية القديمة والحديثة. ومن امثلة ذلك قاعة قصر طاق او ايوان (كسرى) بمدينة طيشفون

وقد كانت هذه القاعات معدة لهذا الغرض في قصور الامراء أيضاً ودليل ذلك ماورد بكتاب الاغاني الذي هو من ذخائر الادب العربي ومن اغنى المراجع في تاريخ الثقافة العربية على لسان اعرابي يصف قصر احد امراء سامرا وهو يقول ان هذا الامير اذن له بدخول غرفته فوجدها شبيهة بقاعة كسرى

والقاعتان الخارجيتان الواقعتان على المحور الرئيسي للقصر على شكل حرف T الذي اعتدنا رؤيته في سامرا . اما القاعات الخمس المرتبة على شكل صليب فان الوسطى منها مربعة وكانت لاجتماعات الخليفة الخاصة وهناك اربع مجموعات متشابهة من الغرف بين أذرع الصليب تتكون كل منها من ثمانية غرف تدور حول رحبة صغيرة مربعة. وبينما نجد القاعات الكبرى مسقوفة بالخشب على شكل قبو على الارجح ، نجد الغرف الصغرى مسقوفة بقبوات معقودة من اللبن ذات حشوات غاطسة قريبة الشبه بالسقوف الهلينية (الاغريقية القديمة) ذات الحشوات الغاطسة

وامام القاعات ذات الشكل حرف T الواقعة على المحور الرئيسي ، رحبات وغرف كثيرة أخرى لضرورات المعيشة المنزلية بينها حمام فاخر كان مكسواً بالرخام

اما الزخارف فهي على نسق واحد متكرر ويظهر جمالها في اتساقها وتكرارها وكبر المساحة

التي تغطيها لا في دقة صناعتها . وبنا نجد في البيوت الخاصة التي استكشفت بسامرا على كل حائط منها زخارف كثيرة منوعة دقيقة وغنية . والطراز السائد هنا هو طراز سامرا الاول [1] ويغطو وزرات القاعات الرئيسية صفف حائطية منتظمة في ثلاثة صفوف : أسفلها مربع وتعلوه صفة مدببة العقد فوقها دائرة . اما الغرف الصغرى تنجد بها الصفف المربعة في الاسفل تعلوها أخرى بيضية او أهليلجية مدببة او ذات اربع حنايا . على ان الصفوف الثلاثة لا توجد كاملة في أية حجرة من الحجرات

وعلاوة على زخارف الجص نجد في بعض الحجرات زخارف مصورة منقوشة ومذهبة كما يشاهد ذلك في السقيفات المطلة على النهر . اما الواجهة ذات الثلاثة العقود فكانت محلاة بالفسيفساء الزجاجية على أرضية مذهبة في اشكال زخرفية تغلب فيها الفروع النباتية . اما الالوان تنحصر في ألوان الاخضر الذي يتدرج من الاخضر الذهبي الى الاخضر الغامق وبراعم الازهار والفاكهة من اللؤلؤ والارضية من الذهب . وكانت هذه الالوان موزعة جميعاً بنسب متساوية تقريباً . وكانت ابواب الغرف مصنوعة من الاخشاب الفاخرة وكانت غنية بالزخارف المنقوشة والمذهبة ومحلاة بمسامير النحاس المذهبة أيضاً . وكانت النوافذ تملأ بقطع زجاجية مختلفة الالوان منها الازرق اللازوردي والاصفر الباهت والبني والاخضر الغامق والاحمر البنفسجي . على ان هذه البقايا جميعها لا تكفي لتكوين فكرة واضحة تماماً عن زخرفة الحجرات

ويتكون القسمان الآخران من المستطيل العظيم من مجموعة من المنازل المفردة . ونظراً الى كبر مساحة القصر كانت المسافة الواقعة بين حائط النهر وخط الجانب الداخلي من رحبة الشرف الثالثة كافية لتشييد المنازل بها . اما الفضاء المجاور للرحبتين الاوليين فبقي خالياً من البناء تقريباً . وبهذه الطريقة نجد المحور الرئيسي يقسم القصر الى قسمين كما في قصر العاشق . وهذه المنازل المفردة تعد نماذج وأمثلة حقيقية لطراز المنازل الخاصة بسامرا . فهي تتكون من ست عشرة غرفة مجتمعة حول رحبة . وهذه الرحبات مستطيلة الشكل نسبة اضلاعها ٢ : ٣ وفي احد أطرافها قاعة على شكل حرف T . وكان يقطن هذه المنازل خدم وحشم الامير او زوجاته وحرمه

اما في القسم الشمالي فيختلف التخطيط قليلاً اذ نجد شارع السوق ورحبات كبرى يظن أنها كانت مكنات للعشاة والحرس . وقد لحصنا من قبل في تأسيس سامرا أن المقسم خط القطائع للقواد وللكتاب وللناس . وانه أفرد قطائع الاتراك والحجم وغيرهم عن قطائع الناس جميعاً وجعلهم معتزلين عنهم . ومنعهم من الاختلاط بهم . ليس معهم في قطائعهم ودورهم احد من

(١) هذا الطراز يسمى الآن الطراز الثالث ويرمز اليه بالحرف C

الناس يختلف بهم من تاجر ولا غيره . ولا يطلق لغريب مجاورتهم . ولا يطلق معاشرة المولدين . الخ . وانهُ أمر قواده وأصحابه ورؤساء جنده ان يبنوا لهم في خلال قطائعهم المساجد والاسواق والحمامات . ولاشك ان هذا كان الحال ايضاً في بلكوار

وقد روى المقريزي في وصف قطائع ابن طولون انهُ كان له القصر والميدان للعب الصوالجة ولا بد ان قصر بلكوار كان فيه كل ذلك أيضاً

ولاحظنا في دراستنا لقصري المشتى والأخيضر ان المسجد كان يقع الى اليمين في القسم الاول من رحبة الشرف . ولذلك كنا نعتقد ان هذا هو الحال ايضاً في بلكوار . فمسجد قصر المشتى يقع الى يمين المدخل المكانّ بالحائط الجنوبي وهذا الحائط في سمت القبلة . وفي وسطهِ (اي المسجد) المحراب الذي يدل دلالة واضحة على انهُ مسجد القصر

اما في قصر الاخيضر ، فأن مدخله من الشمال . ومسجده في مثل هذا الموضع أيضاً الى يمين الداخل وهو ذو بوائك واروقة منتظمة وله محراب في رواقه الجنوبي

فالقصران الاولان في سمت القبلة . اما بلكوار فتنحرف عنها بمقدار ٤٥° درجة

ولذلك فاذا أشيء به مسجد فلايحتاج الى كبير عناء لمعرفة موقعه لان حائط القبلة به لا بد ان يكون منحرفاً عن بقية الجدران بمقدار ٤٥° درجة

***

وقد ساعدنا هذا الاستنتاج على العثور على موضع المسجد في الرحبة الثانية حيث وجدنا في حائط هذه الرحبة باباً ذا ثلاث فتحات والى يمينهِ مسجد مساحته ١٥ × ٣٥ متراً به صفان من الاعمدة في كل منهما ثمانية عمد . وقد كانت هذه الاعمدة من خشب الساج أو الرخام ولم يبقَ الاّ آثار مواضعها وأسسها وقواعدها التي كانت تبلغ ٥٠ سنتمتراً (أو ذراعاً واحداً)

ولم يبقَ شيء كذلك من أسوار هذا المسجد أو أسسها لانها كانت من الآجر وقد أُخذت جميعها وحملت لبنائها الى اماكن اخرى ولذلك لم يمكن معرفة موضع المحراب بهذا المسجد . الاّ اني وجدت بالقسم الجنوبي المقابل مسجداً صغيراً آخر تبلغ ابعاد قاعدته ٧٦ر٧ × ٣٥ر١٠ المتر (اي ١٥ × ٢٠ ذراعاً) وهو مبني باللبن ولذلك لم تمتد اليهِ يد بالعبث أو الهدم

ولهذا المسجد ثلاثة ابواب في جداره الشمالي ويتكون محرابه من صفة عميقة مستديرة يحف بها الصاف اعمدة (اعمدة حائطية) يحيط بها رفرف بارز ذو تقوير محدب مكوناً أطاراً مستطيلاً ولذلك يمكن اعادة انشاء المسجد الكبير على هذه الصفة ايضاً

ويعد قصر بلكوار من أعظم المنشآت المعمارية لكبر مساحته وحجمه ووفرة الظواهر الفنية المعمارية فيه

ومما يزيد في روعته وحيائه الواسعة بنسبها وتخطيطها وعظمتها . وابوابه يتنوع اطرزتها واشكالها . وواجهاته بعقودها وزوفوفها وضيفائها وهي جميعاً أدلة ناطقة على منزلة هذا البناء في تاريخ العمارة الاسلامية . كما أن المادة المبني منها افضل بكثير من المواد المستعملة في بناء الابنية الاخرى فان الاسوار المحيطة بالحصن مبنية من الطين ذي اللون الاسود والرحبة الاولى والاقسام الجانبية مبنية من اللبن وبنيا الرحبة الثالثة مبنية من الآجر وكذلك قاعات العرش هذا الى حسن اختيار موقعه ودقة تخطيطه . فان الواقف في الحجرة الوسطى (المركزية) مثلاً يرى الى الشمال الغربي صفًّا هائلاً من القاعات ورحبات الشرف الثلاث بأبوابها العظيمة وشوارع المربع الخارجي والى الجنوب الغربي القاعات والحديقة والنهر وسهل الجزيرة الذي لا يصل الى مداه الطرف

وفي المحور الرئيسي يرى الانسان في الشمال الغربي القاعات والمنازل والاقسام الجانبية ووادي النهر يشرف عليها جميعاً على بعد فرسخين ونصف الفرسخ قصر العاشق وقبة الصليبية والى الجنوب الشرقي رأس قناة القاطول وقبة القائم . ولا شك ان تخطيط القصر على هذه الطريقة مع ما فيه من التناسق وحسن التقسيم على النظام المحوري قد أكسبهُ كثيراً من العظمة والجلال والروعة والبهاء

كما ان المعمار قد استفاد كثيراً من طبيعة الأرض وأحسن استغلالها من حيث ارتفاعها وانخفاضها . فالقسم الأوسط مثلاً اكثر ارتفاعاً من القسمين الجانبيين كما ان الرحبات تختلف من حيث ارتفاع ارضها وانخفاضها . وترتفع قاعات العرش التي يجلس فيها الخليفة عن جميع أجزاء القصر الأخرى وتكاد تكون أرضها في مستوى السطوح المنبسطة بالاقسام الجانبية

***

تحقيق موقع القصر وتاريخه

يقول اليعقوبي : «توفي الواثق في ٢٣٢ هـ (٨٤٧م) وولي جعفر المتوكل بن المعتصم فنزل الهاروني وآثره على جميع قصور المعتصم وأنزل ابنه محمداً المنتصر قصر المعتصم المعروف بالجوسق وأنزل ابنه ابراهيم المؤيد بالمطيرة وأنزل ابنه المعتز خانف المطيرة مشرقاً بموضع يقال له بلكوار (فاتصل) البناء من بلكوار الى آخر الموضع المعروف بالدور مقدار اربعة فراسخ »

ويقول في موضع آخر : « ان المتوكل بنى مدينة جديدة سماها الجعفرية واتصل البناء من الجعفرية الى الموضع المعروف بالدور ثم بالكرخ وسرَّ من رأى مادًّا الى الموضع الذي كان ينزله ابنه ابو عبد الله المعتز ليس بين شيء من ذلك فضاء ... ولا موضع لاعمارة فيه فكان مقدار ذلك سبعة فراسخ »

وقد استنتج هرتسفلد من هاتين العبارتين أن هذه الاطلال التي وصفنا تخطيطها وبناءها هي اطلال بلكوار لان هذه الصفات التي ذكرها اليعقوبي وهي الأربعة والسبعة الفراسخ توافق موقعه موافقة تامة وهي تكوّن الطرف الجنوبي لمنطقة الأطلال العظيمة الا بعض اخرابات الطويلة والمنازل الممتدة على شاطىء دجلة مسافة خمس دقائق شيئاً على الاقدام ويكون سورها الجنوبي الشرقي والشمالي الشرقي حدود ضواحي سامرا

ولذلك فلا بد ان يكون بلكوار قد بني في عهد الخليفة المتوكل على الله بين سنتي ٢٣٢ و٢٤٧ هـ (٨٤٧ — ٨٦١ م) . على اننا يمكننا ان نحصر التاريخ في عدد اقل من السنين فقد عثر هرتسفلد على كتابة أثرية بالخط الكوفي البسيط على كتلة من الخشب في احدى القاعات قصها « الامير المعتز بالله بن أمير المؤمنين » وهذا هو لقب ابي عبد الله طلحة ابن الخليفة المتوكل

وقد روى ابن خلدون وابن الاثير ان الخليفة المتوكل أعلن ولاية العهد لأبنائه الثلاثة من بعده وهم : محمد المنتصر وابرهيم المؤيد وابي عبد الله طلحة وذلك في سنة ٢٣٥ هـ (٨٤٩ م) وان الاخير منهم لقب بالمعتز بالله وأعطى ولايات خراسان وطبرستان والري وارمينيا وفارس وآذربيجان

وفي رواية هذين المؤرخين خطأ لحظهُ هرتسفلد فيما يتعلق بلقب المعتز بالله لان المعتز كان يتولى الاشراف على دار سك النقود للامبراطورية الاسلامية كلها وظهر اسمهُ على النقود المسكوكة في سنة ٢٣٥ هـ (٨٤٩م) أبو عبد الله . اما لقبه المعتز بالله فلم يظهر على نقود الا منذ سنة ٢٤٠ هـ (٨٥٤ م) مما يدل على انهُ لم يلقب بذلك الا منذ سنة ٢٤٠ هـ

وعلى ذلك لا يمكن ان تكون الكتابة التاريخية الكوفية على كتلة الخشب التي أشرنا اليها آنفاً وفيها اسم المعتز بالله اقدم من سنة ٢٤٠ هـ . وبعبارة اخرى إن قصر بلكوار لا يمكن ان يكون انشيء قبل هذا التاريخ

كما انهُ لم ينشأ بعد ٢٤٥ هـ (٨٥٩ م) لان المتوكل كان مبنيًا في ذلك الوقت بانشاء مدينته الجديدة « الجعفرية » التي كان قد عزم على ان ينتبها وينتقل اليها وتنسب اليهِ ويكون له بها الذكر وقد ابتدأ النظر في ذلك في سنة خمس واربعين ومائتين وانتقل المتوكل الى قصور هذه المدينة اول يوم من محرم سنة سبع واربعين ومائتين

***

وبناء على ذلك يكون قصر بلكوار قد بني بين سنتي ٢٤٠ — ٢٤٥هـ=(٨٥٤—٨٥٩م)

سير الزمان

بريطانيا وفرنسا

وحدة لا تنفصم عراها

روسيا والبلطيق

من ايڤان الرهيب الى ستالين

يوميات دولية

١ — بونبرة نمرت نجيا

٢ — الحرب لا تجزأ

٣ — قانون تعديل الحياد الامبركي

بريطانيا وفرنسا

ومرة لا تنفصم عراها

لاتحاد الاوضاع الجغرافية والمبادىء السياسية والاجتماعية

تتجه السياسة الالمانية في غير اسلوب من اساليبها الى التفريق بين بريطانيا وفرنسا. فأبواق الدعاية في الميدان الغربي تنادي الجنود الفرنسيين بأن الجيش الالماني لا يبغي محاربتهم ، وانهُ يريد ان يأخذ بتلابيب القوات البريطانية ليريها كيف تكون الحرب . ومكتب وزارة الدعاية في برلين يذيع أن فرنسا رضيت باقتراح الصلح الذي عرضهُ موسوليني قبل نشوب الحرب ولكن بريطانيا أبت وقسرت فرنسا على مشاقتها. ومن هذا القبيل شيء كثير. ولو أن الحكومة الالمانية ادركت توثق ما بين بريطانيا وفرنسا من صلة لاستغنت عن بذل الجهد في ناحية لا تجديها نفعاً. فقد طاشت حتى الآن سهام الدعاية الالمانية الموجَّهة الى هذا الهدف ولا ينتظر ان تصيب . ونحن نقول هذا طالمين ان السياسة البريطانية لم تكن على وفاق دائماً مع السياسة الفرنسية بعد الحرب الماضية ، وان الدولتين كانتا خصمين لدودين في الماضي قبل مستهلّ هذا القرن ، ولكن امام النظر في العوامل الاصيلة في سياستهما الخارجية وهي عوامل الجغرافية من ناحية وعوامل نفسية الشعبين واصول نظمهما الاجتماعية والسياسية من ناحية اخرى ، يسفر عن ان الصلة بينهما محكمة العرى ، وان الاعتقاد يسود دوائرهما بان لا قيام للواحدة دون الاخرى

— ١ —

والباعث الاول على هذا الاعتقاد اننا لا نجد سبباً واحداً يبعث على تخاصم بريطانيا وفرنسا الآن . وهذه حالة جديدة في علاقاتهما . ففي العصور الماضية كثيراً ما وقفت بريطانيا وفرنسا في صفين متقابلين . ففي العهد الواقع بين الفتح النورماندي و « حرب المائة السنة » كان ملوك الانكليز قد احرزوا عن طريق الزواج ملك بعض الولايات في فرنسا وطمحوا من طريقها الى الفوز بالتاج الفرنسي . فأفضى ذلك الى شقاق وحرب بينهما استفحلا بما دخل النزاع من البواعث الدينية كدفاع ملوك فرنسا عن الكاثوليك الانكليز ضدّ « الانجليكان » و « البيورتان » ثم تفاقم الخلاف بين الدولتين حول المطامح الاستعمارية في الهند وكندا

وفي عهد نبوليون نهجت بريطانيا النهج الذي خطهُ لها الكردينال ولسي في عهد هنري الثامن وقاعدته توازن القوى الاوربية والحيلولة دون سيطرة دولة واحدة على اوربا فحاربت نبوليون وفازت مع حلفائها بخذلهِ وظلّت هي مالكة سيادة البحار. وكان الظن بعد ذلك ان بريطانيا تتقرب من فرنسا ولكنها لم تفعل فظلت علاقاتها في خلال القرن التاسع عشر مشوبة ، بالرية

المتبادلة. وكانت اسباب هذه الريبة ذكرى فرنسا الظافرة في عهدي لويس الرابع عشر ونبوليون واتساع التعاطف بين الامتين لبعد ما بين آدابهما وكون الملكة فكتوريا تزوجت اميراً المانيًّا

ثم نشبت الحرب الفرنسية البروسية سنة ١٨٧٠ فنيت بها فرنسا بالخذلان ، وكانت خطة توازن القوى تقتضي من بريطانيا حينئذٍ ان تنضم الى فرنسا المغلوبة ، ولكن بسمارك تمكن بدهائه من اثارة الخلافات البريطانية الفرنسية على شؤون المستعمرات ولا سيما ما كان خاصًّا بشمال القارة الافريقية وما زال حادثة فاشودة في سنة ١٨٩٨ مثلاً بليغاً على ذلك

ولكن حكمة الملك ادورد السابع والوزير الفرنسي دلكاسيه ولورد لانزدون استطاعت أن تستخرج من جيفة النزاع الاستعماري عسل الاتفاق الودي فعقد اتفاق سنة ١٩٠٤ بينهما فكان ذلك حدًّا فاصلاً في موقف احداهما من الاخرى حيال المسائل الاستعمارية في مصر ومراكش ونيوفندلند وعندما اقتسما الاشراف على معظم البلدان المشمولة بالانتداب في سنة ١٩١٩ فصلنا ذلك على الغالب على اساس من التفاهم والود

وعلى الرغم من تسوية المسائل الاستعمارية بينهما ، واشتراكهما في الحرب العالمية الماضية (١٩١٤ — ١٩١٨) قامت بينهما بواعث تنافس في قارة اوربا بعد الشروع في تنفيذ معاهدة فرساي . فخشيت بريطانيا ان تكون فرنسا قد ملكت من اسباب القوة ما يمكنها — وقد أنقذت من الخطر الالماني — من بسط سيطرتها على اوربا واقلاق التوازن الدولي فيها

وكانت لا ترى من المصلحة ان يكون لفرنسا طائفة من الاتباع تدور حولها كالتوابع حول الشمس فعارضت في احتلال الرور سنة ١٩٢٣ وذهبت الى أن معاهدة فرساي كانت شديدة الوطأة على المانيا وانهُ يجب بذل السعي لمساعدتها على النهوض . ورغبةً منها في اعادة التوازن الأوربي ألقت بنفوذها في كفة المانيا . فلما استأثر الحزب النازي بمقاليد الحكم في المانيا ظلَّ هذا الرأي غالباً على فريق كبير من أصحاب النفوذ والمقام في بريطانيا . ولمَّا احتلت المانيا منطقة الرين المجردة من السلاح ، ناقضة معاهدة لوكارنو ، ثنت بريطانيا فرنسا عن القيام بعمل حربي حاسم لدفع هذا النقض . ولم يتغير هذا الرأي إلاَّ قليلاً عندما ضمت النمسا الى المانيا قوة واقتداراً ثمَّ في أثناء أزمة بلاد السوديت . وقد كان العنصر الغالب في هذا الرأي ان المانيا انما استردَّت سيادتها على أرض المانية (منطقة الرين) وضمت بضعة ملايين من الجرمان . فلم يرَ الانكليز في ذلك شيئاً إدًّا او مما يجوز التعرُّض له بالقوة

ولكن بعد اتفاق مونيخ وطرح مسألة مطالبة المانيا بالمستعمرات على بساط البحث ومضي المانيا في تعزيز أسطولها البحري واستباحة تشيكوسلوفاكيا وتهديد بولندة ، ثبت لبريطانيا ان توازن القوى الأوربية مهدد من قبل المانيا لا من قبل فرنسا . وليس ثمة ريب في ان بريطانيا

كانت — حتى قبل نشوب الحرب — ترغب في ان تكون فرنسا دولة قوية عزيزة الجانب وقد صرّح أقطابها جميعاً — بلدوين وتشمبرلين وإيدن وهاليفاكس — ان حدود فرنسا هي حدود بريطانيا كذلك . فانتفت بذلك كل رية لاحداهما في الاخرى . فالتنافس على برّ أوربا بينهما قد زال زوالَ التنافس على المسائل الاستعمارية . فمصلحتهما معا تتحدّد وجوهها واحدة لاريب في ذلك

— ٢ —

وثمة باعث آخر على ثقة إحداهما بالأخرى . فالدولتان لاترغبان في فرض أساليبها ونظمها السياسية على أحد ولكنهما ترغبان أشد الرغبة في صون المبادىء والقواعد التي قامت عليها نظمها السياسية والاجتماعية

وهذه حالة جديدة كذلك . ففي الفترة التي انقضت على انتهاء الحرب العالمية الماضية ، ذهب ظنُّ بعض المفكرين والكتّاب الى ان الفلسفة السياسية التي أخذت بها فرنسا تختلف عما يقابلها في بريطانيا وتعارضها . وقد كان اصحاب هذا الرأي ممن يكتفي بالظواهر دون الأصول ، فقالوا ان فرنسا أميل الى «اليسار» في الآراء السياسية من بريطانيا . ففي فرنسا حزب شيوعي يؤبهُ لهُ وليس له ما يقابله في بريطانيا . وفرنسا عقدت ميثاقاً مع الاتحاد السوفيتي ، أما بريطانيا فتعامل السوفيت ولكنها لا توثق الصلة بهم . وفي فرنسا يشترك الراديكاليون مع الاشتراكيين في انشاء جبهة شعبية ولكن شيئاً من هذا لا يقع في بريطانيا . بريطانيا متدينة ، وفرنسا معارضة للاكليروس

ولكن الذين نفذوا من الظواهر الى ما وراءها ، علموا ان الشعب الفرنسي لا يزال شعباً متديناً وان السنوات الاخيرة شهدت بين شبابه نهضة مسيحية قوية وان البابا بيوس الثاني عشر ذهب الى فرنسا عند ما كان كردينالاً — الكردينال باتشلي — فلقي فيها كل اجلال واحترام . وعلموا ان الميثاق مع الاتحاد السوفيتي لم توقعهُ حكومة شيوعية فرنسية بل حكومة محافظة تميل الى اليمين وتخشى الشيوعية . وعلموا ان «كتل اليسار» و «الجبهات الشعبية» في فرنسا ظاهرات دائمة في الانتخابات الفرنسية وان الراديكاليين وهم العنصر المعتدل فيها يميلون دائماً الى الوسط بعيد انشاء هذه الكتل او الجبهات وتحقيق غرضها الانتخابي ، وعليهم المعول في استمرار السياسة الفرنسية المعتدلة الرصينة . وعلموا كذلك ان جمهور الناخبين في فرنسا على الرغم من اقتراعهم في جانب الشيوعيين او الاشتراكيين ، ليسوا في صميم نفوسهم الا طبقة متوسطة معتدلة ، لا تطيق ان تشهد قيام النظام الشيوعي في فرنسا او حتى نظام الدولة الاشتراكية الذي تسلم به شعوب الدول الدكتاتورية . يقابل هذا انه كان من رأي الكتاب الذين يكتفون بالظواهر أن بريطانيا ليست دولة دمقراطية لان معظم مقاليدها في أيدي جماعة منحدرة من

الارستقراطية العريقة ولان بعض وزرائها الحاليين من سلالة وزراء القرون الماضية . ولكن الذين تغلغلوا في تفهم الحياة البريطانية يعلمون ان هذه الارستقراطية الانكليزية ركن من أرسخ اركان الحكومة الدمقراطية في بريطانيا . فهي جماعة لها من الخبرة والحكمة في تدبير الامور، ومن اللين والخضوع للمشيئة العامة ومسايرتها، ما مكّنها من جعل الدمقراطية السياسية في بريطانيا حقيقة واقعة ومن السير سيراً حثيثاً نحو تحقيق الدمقراطية الاقتصادية

وان الباحث ليضحك عندما يسمع نقداً لخطة تشمبرلين فتوصف بأنها خطة اقلية ارستقراطية متحكمة ، كأن أصحاب هذا القول لسوا او تناسوا أن أقطاب الخطة التي تفوز باعجابهم — وهي خطة تشرتشل وإيدن ودف كوبر وغيرهم — ارتق صلة بالارستقراطية البريطانية من تشمبرلين وجون سيمون !

ومهما يقل على ألسنة فريق من الكتّاب غير الانكليز عن نزعة الانكليز الى التحكم الفاشستي في بلادهم فليس ثمة دليل على ان هذا الرأي يتعدّى « دوائر ضيقة » من رجال الحياة الاجتماعية وسيداتها . ان الانكليز لا يرضون بديلاً عن الحقوق والضمانات التي أتاحت لهم من المجد والسعادة والثروة والثقافة العالية ما أتاحت . وما هي هذه الضمانات ؟

أولاً ان لا تسنّ القوانين التي يقرّها ممثلو الشعب إلاّ الأعمالَ التي يُنصّ على عقوباتها.

ثانياً — ان يتساوى جميع الناس أمام هذه القوانين وان يكون القضاة مستقلين عن التأثير السياسي . ثالثاً — ان يكون للحكومة سلطة عظيمة وهي متقيدة أزمنة الحكم وان يملك ممثلو الشعب تغييرها اذا انقلبت أكثريتهم ضدّها . رابعاً — ان لا تخضع حرية الضمير والرأي والقول لقيودٍ ما ، إلاّ القيود التي يقتضيها احترام حريات جميع الناس

هذه هي الضمانات لحريات العامة في بريطانيا وهي لا تختلف عما يقابلها في الولايات المتحدة الاميركية وفرنسا . وقد أثبت اختبار البشر الطويل قيمتها العظيمة . قد لا تكون وافية، وقد تكون هذه الأمم مقبلة على تعديل في بيان حقوق الانسان . ومن المحتمل ان لا تقبل هذه الشعوب التي خبرت قيمة هذه الضمانات، جمع السلطة الاقتصادية والسياسية في أيدي جماعة واحدة فيزيل هذا الجمع القدرة على إقامة الميزان بين القوتين في تسيير دفة الدولة . ولذلك يلوح ان الاشتراكية والفاشستية والشيوعية مناقضة في أساسها لهذه الحريات . وقد تظهر هذه الحرب أن اتقان أساليب الدعاية يقتضي وضع قيود لحماية الرأي العام من الانباء المختلفة والحضّ على العنف، وفي هذا طبعاً حدٌّ من حقّ حرية القول . ولكن خلاصة الحريات المدنية مطوية في المبادىء والقواعد التي عددناها

هذه المبادىء والقواعد هي اليوم وستبقى غداً أساس الكيان السياسي في فرنسا وبريطانيا

والولايات المتحدة الاميركية وطائفة غير يسيرة من الأمم الأوربية كهولندة وبلجيكا وسويسرا والسويد والنرويج والدنمارك وفنلندة وغيرها . من حق كل انسان ان يعتبر هذه المبادىء خاطئة او ضارة او لا تتفق مع الارتقاء الاجتماعي الاقتصادي السياسي في هذا العصر وهذا على ما يلوح هو رأي أقطاب الدول الدكتاتورية سواء أفاشستية نازية كانت أم شيوعية . ولكن لا ريب في ان كثرة الأمتين البريطانية والفرنسية حكومة وشعباً تعتقد أنها مبادىء سليمة صالحة ، وهي مستعدة للدفاع عنها ، فالاتفاق بين بريطانيا وفرنسا على هذا الأساس متين لا تفهم مراده

— ٣ —

إن الشعبين البريطاني والفرنسي متفقان الآن بأن لا قيام لاحداهما دون الاخرى وهذه حالة جديدة او تكاد تكون كذلك . فقد جاء زمن ظن فيه بعضهم في هذه الأمة وتلك ، انهُ من المستطاع ان تصاب إحدى الدولتين بضربة قاضية من دون ان تتأثر الاخرى . وقد تقدّم معنا كيف وقفت بريطانيا الى جانب المانيا في أغلب وجوه النزاع التي نشأت بين المانيا وفرنسا بين سنتي ١٩٢٠ و١٩٣٦ . وفي سنة ١٩٣٥ عند ما استفحلت الأزمة الحبشية الايطالية قال فريق من الفرنسيين « ليس هذا النزاع من شأننا ونحن لا نريد ان نشنّ حرباً على ايطاليا لحماية منابع النيل لاجل بريطانيا » وفي سنة ١٩٣٨ نظرت بريطانيا الى التزامات فرنسا في شرق أوربا فقالت « ليس هذه الالتزامات من شأننا ولن نشنّ حرباً على المانيا للنهوض بالالتزامات الفرنسية »

ففي هذه الحالات كان من السهل دفع الاسفين بين بريطانيا وفرنسا فكان ما كان من خذلان فرنسا للنمسا وبلاد السوديت

وليس ثمة ريب في ان هذا الخلاف بين الدولتين كان باعثاً من بواعث ضعفهما في حلبة النضال السياسي . ولكن فترة الخلاف على هذه المسائل الاساسية قد انقضت ، والاتفاق بين الدولتين على ما يهمهما من شؤون اتفاقٌ تام . ذلك ان التهديد الموجّه الى كيانهما واحدٌ لا ريب فيه . والمسألة الكبرى المرتسمة في افق السياستين البريطانية والفرنسية هي هذه : — أتبقى اوربا مجموعة من الدول الحرّة أم تطغى عليها دولة واحدة تأخذ بأسلوب القوة والعنف في تحقيق أهدافها ؟ أيستطيع الشعبان البريطاني والفرنسي الاحتفاظ بالحريات التي يقدسانها ، وهل في وسعهما المحافظة على مستعمراتهما ؟ وهذه مسائل لا تعقيد فيها ولا غموض . وجمهرة الشعبين تفهمها مدركة انها انما تحارب للدفاع عن الكيان كما تريد ذلك الكيان ان يكون . وقد كانت جمهرة الشعبين راضية بالمسالمة في سبيل اجتناب الحرب ولكنها أبت ان ترضى بالتخلي والتسليم للمطلقين في سبيل اجتنابها

ويلوح الآن انهُ من الخير ان يسعى خصوم بريطانيا وفرنسا الى التفريق بينهما في سبيل خذل كلٍّ منهما على حدة ، فاذا تعرضت الامبراطورية الفرنسية في افريقية لخطر ما فالانكليز يعلمون ان هذا الخطر غير مقتصر على فرنسا وانها اذا خذلت فدورهم آتٍ لاريب فيه . ولقد فاه أقطاب ساستهم في غير موقف رسمي واحد بأنهم يعتبرون كل تهديد موجه الى سلامة الأراضي الفرنسية (في أوربا وخارجها) اعتداء يضطرهم الى الوقوف صفًّا واحداً مع فرنسا . قالها إيدن عندما كان وزيراً للخارجية ولورد هاليفاكس خلفهُ فيها والمستر تشمبرلين . أما وقد انتهت المسألة الاسبانية ، فليس ثمة سبب يحمل أحداً على الاعتقاد بأن هناك مسألة في الوسع أن تبث بواعث الخلاف والشقاق بين دولتي المانش

— ٤ —

ويضاف الى كل هذا ان الوضع الجغرافي وتغيُّر أساليب الحروب الحديثة يجعلان التعاون العسكري بين الدولتين ضرورة محتومة ، يدل على ذلك وثيقة سرية أعدتها وزارة الخارجية البريطانية ولم تنشر الاَّ سنة ١٩٢٤ نشرها صحافي اميركي فازبها اتفاقاً . وقد جاء فيها : —

ما هي اذن العناصر الاساسية في ضمان سلامة الامبراطورية البريطانية ؟

ليست السياسة الموصوفة بالعزلة سياسة عملية الآن . قد تكون خطة من هذا القبيل متاحة الآن لاميركا القوية البعيدة . ولكن الامبراطورية البريطانية لا يسعها ان تجعل العزلة دينها . فالتاريخ والاقتصاد يثبتان ان العزلة في الأحوال الحاضرة تعني الخطر والضعف والتعرض للهزيمة . ثم ان الجغرافية والطيران يثبتان انها (اي العزلة) في حالتنا ليست حقيقة علمية

والدفاع عن بريطانيا العظمى يقتضي ما يلي : —

١ — ان لا يسمح لدولة واحدة بان تبلغ من القوة مرتبة تمكنها من السيطرة على مرافىء المانش والبحر الشمالي

٢ — ان تجتنب بريطانيا عداء فرنسا وبلجيكا ثم من بعدهما عداء هولندة والمانيا والدنمارك او اية مجموعة منها وهي جميعاً الدول التي تملك المرافىء المذكورة

٣ — ان لا يسمح لأية دولة ثالثة تحارب فرنسا وبلجيكا بأن تغزو هذين البلدين وتهدد الحالة الراهنة لمرافىء المانش او منطقة من أراضي فرنسا وبلجيكا تتعرَّض بريطانيا منها للغزو الجوّي

٤ — من المصالح البريطانية الثابتة ومن مبادىء دفاعها الأصيلة الاتفاق مع فرنسا وبلجيكا اتفاقاً من شأنه صون هذه الاراضي من الوقوع في أيدٍ أخرى

روسيا والبلطيق

سعي ايفان الرهيب الى ستالين

ليست سياسة الاتحاد الروسي السوفيتي في البلدان الواقعة على سواحل بحر بلطيق في الشهرين الأخيرين بالسياسة الجديدة في تاريخ روسيا . ولكنها تدل على ان روسيا عادت الى حلبة سياسة القوة عازمة على تحقيق هدف قديم وضعتهُ نصب عينها منذ بضعة قرون وهو الاتجاه الى البحر . ففي سنة ١٠٣٠ في عهد القيصر ياروسلاف وفي سنة ١١٠٦ في عهد القيصر فيسيسلاف بذلت روسيا مساعيها الاولى للوصول الى بحر بلطيق عن طريق المنطقة التي تقطنها القبائل اللتية Lettrian . وتمكنت في اواخر العصور المتوسطة من تحقيق وحدتها الجغرافية وانشاء حكومة قوية ، وذلك بعد ان ردَّت جحافل المغول الغازية وفازت بأراض واسعة غنية بالموارد الطبيعية . ولكن صلتها بالبحر حينئذ كانت ضعيفة او مفقودة . فالبحر الاسود كان في قبضة الترك . والبحر الابيض في الشمال كان لا يزال مجهولاً . فلم تَرَ منفذاً لها الى البحر الا في بحر بلطيق . ولكن عصبة المدن الالمانية المنسوبة الى هانسا Hanseatic League كانت سيدة امواجه حينئذٍ ، مستأثرة بممالك التجارة فيه وأسبابها . اما استونيا ولتفيا فكانتا خاضعتين للفرسان التوتونيين Teutonic Order فوقفتا حائلاً دون توسع روسيا نحو سواحل ذلك البحر

وفي سنة ١٤٩٢ — سنة اكتشاف كولومبوس للقارة الاميركية — انشأ الروس قلعة ايفانجورود التي ما فتئت تسيطر على خليج نارفا . (وهو خليج واقع في أقصى الشرق من ساحل استونيا ولا يبعد عن لننغراد الا نحو ١٥٠ كيلو متراً كما يسير الطير) وقد كان انشاء هذه القلعة الخطوة الاولى نحو البحر وهي خطوة حسبها القيصر ايفان الرهيب وسيلة يدخل بها الى روسيا عناصر الحضارة التي عزلت جانب الدول الاوربية . وقد كان ايفان الرهيب طاغية مستبدًّا ولكنهُ كان سياسيًّا ألمعيًّا . وكان يعلم ان دول اوربا الغربية يهمُّها ان تبقى روسيا معزولة عن سائر اوربا بسياج من الفطرة . ولذلك رسخ في ذهنه ان الحاجة في روسيا انما هي الى رجال الصناعة والفن والتعليم ولا سيما الى البارود الذي لا غنى عنهُ في كسب الحروب

فاغتنم ايفان الفرصة السانحة لهُ — كما اغتنمها ستالين في الشهرين الاخيرين — بضعف المانيا وانصرافها الى شؤون اخرى تهمُّها ، فطلب ان تباح الحرية لرعاياهُ على صفحة بحر بلطيق والغاء المعاهدة الدفاعية بين الفرسان التوتونيين وبولندة وحل « اللاندستخت » الذي يحمي لتفيا واستونيا . وذهب وفد الماني الى موسكو للمساومة وبعد جدال سلَّم بطلبات الروس . فأرهف هذا النصر قابلية ايفان فرنا الى مرفأ على ساحل البحر يكون خاصًّا بهِ

ويلوح ان ذلك لم يكن اندفاعاً وراء شهوة التوسع ، لان شهوة التوسع كانت قد اشبعت في الشرق . لكنهُ كان استجابة لملحّ حاجة روسيا الملحة الى الاتصال بالغرب . فاجتاح ايڤان البلدان البلطيقية اجتياحاً خرج بهِ بلقب الرهيب Terrible مضافاً الى اسمهِ . وبسط سلطانهُ على مرفإ نارڤا وسيادتهُ على استونيا ولتنيا . ولاح لهُ ان طريقهُ الى الغرب قد مهّد امامهُ

ولكن السويديين حصروا مرفأ نارڤا واشتركوا مع البولنديين في طرد الروس من المناطق الساحلية . وكذلك اضطر البارد الروسيُّ ان يرتدَّ ثانية عن البحر بعد ان ضيَّع خمسين سنة من السعي السياسي والقتال في سبيل ذلك . هوذا البحر ولكن الحائل قائمٌ دونهُ !

وتلا ذلك قرن من الضعف والاضطراب في روسيا فلم تعاود الكرَّة على تحقيق ما حاوله ايڤان الرهيب الاَّ في عهد بطرس الكبير . وقد كان الوصول الى البحر في منزلة وسواس يدفعهُ الى العمل ، فنكر أولاً في كاريليا (على البحر الابيض في الشمال) وانشاء مرفإ فيها على ساحله . وفي سنة ١٧٠٠ زحف على نارڤا ولكن السويديين بقيادة كارلوس الثاني عشر ردوه مهزوماً . فتربص الفرصة السانحة سنتين وهو يتأهب ثم بدأ زحفه فسقطت نارڤا في يديهِ وبلغ نارڤا فاحتلها ثم زحف الى مصبّ نهر النيفا فأنشأ عليهِ مدينة بطرسبرج (لننغراد الآن) فكانت اول مرفإ روسي . ولكنهُ لم يكن واثقاً بنفسهِ وشعبهِ فتوقف عن الفتح وبذل ما في وسعهِ ليرسخ قدمهُ في بعض المناطق التي احتلها . فعرض على السويديين ان يعيد اليهم الأراضي الواقعة على ساحل البلطيق الجنوبي مكتفياً بمصب نهر النيفا حيث أنشأ مدينة بطرسبرج وبجزء من كاريليا بل وعرض ان يدفع تعويضاً لقاء استبقائهِ . ولكن الملك كارلوس الثاني عشر ملك السويد أبى فمضت الحرب الى نهايتها واحتل الروس سائر دول البلطيق في سنة ١٧٦٠ وكذلك غدت روسيا التي لم تكن تملك ، بحسب قول فولتير ، ورقاً واحداً قبل ذلك بمئتين سنة وهي سيدة ذلك البحر

بعد ذلك لم تقف روسيا عند حدٍّ من الفتح ، وجاءت كاترين العظيمة بعد بطرس الكبير فاتفقت مع الالمانيين على اقتسام بولندة وفازت علاوة على ذلك بلتوانيا ودوقية كورلند وهي شبه جزيرة الى الغرب من خليج ريغا . وكذلك امتدت حدود مملكتها الى حدود بروسيا ، وغدت روسيا دولة في الطبقة الاولى بين دول أوربا ، ونصبت مدافعها في جميع المرافىء النفية والتوانية التي غنمتها . وفي سنة ١٧٨٠ اقنعت السويد والدنمارك وبروسيا بعقد اتفاق من شأنهِ ان يمنع دخول السفن الحربية الاجنبية الى بحر بلطيق ؛ ولكن هذا الاتفاق ألغي سنة ١٨٥٧ وما فتئت روسيا منذ ذلك التاريخ تسعى الى فرض سيطرتها على ذلك البحر وفي سبيل ذلك حاول القيصر نقولا الثاني سنة ١٩٠٧ أن يقنع القيصر الالماني بالاتفاق على إيصاد مافذهِ في وجه جميع السفن الحربية التي ليس لها قواعد فيهِ

ولكن هذا الاتفاق لم يجد . لأن خصم روسيا في البحر البلطيق لم يكن دولة أجنبية عنه وانما كان دولة من دوله وهي المانيا . فالربح الالماني متجه الى التوسع في الشرق . وكانت

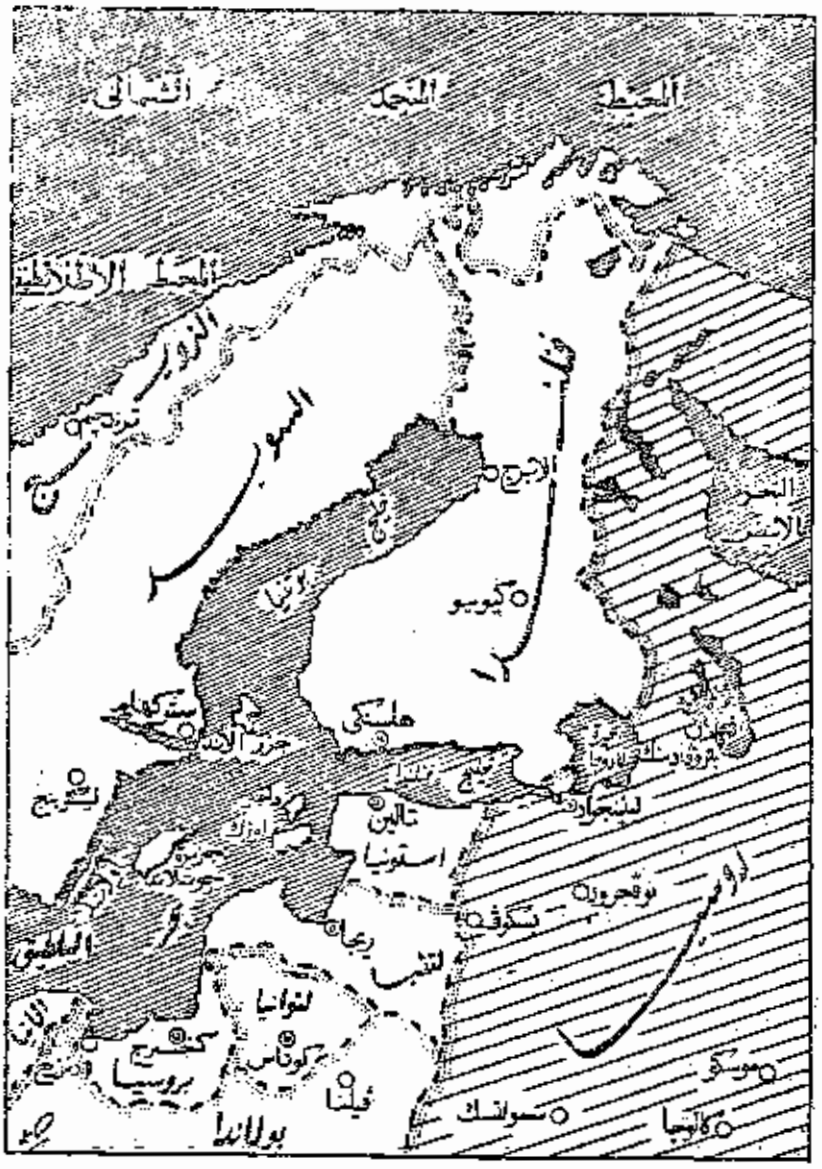

المرحلة الاولى في ذلك التوسع تحويل بحر البلطيق الى بحيرة المانية . فأنشأت الحكومة الالمانية أسطولا عزيز الجانب وشقت ترعة كيال . ووضعت الخطط لغزوة ولايات روسيا البلطيقية ،

على ان يكون الهدف من غزوها السيطرة على منافذ روسيا الى البحر ثم تحويل مراقبها الى قواعد تستند اليها القوات الالمانية في توسيع آفاق فتوحاتها الشرقية . وقد كانت هذه الخطة من اخطر ما هدّد به الكيان الروسي ومن أفعل البواعث التي حملت روسيا على خوض غمار الحرب العالمية الماضية . فلما نشبت الثورة الروسية الاولى في مارس سنة ١٩١٧ ادركت الحكومة الروسية الجديدة المؤقتة ما للولايات البلطيقية من مكانة حربية فوافقت على استقلالها الذاتي ولكنها لم توافق على انفصالها عن الامبراطورية الروسية. ولما استوثق الالمان من عجزهم عن الاحتفاظ بتلك الولايات ، اذنوا للرفيقين لنين وتروتسكي في اجتياز المانيا الى روسيا ظنًّا منهم بأن لشوب ثورة شيوعية في روسيا يحدث فيها من الاضطراب والاختلال ما يحملها على مؤاتهم . فصدق ظنهم . لأن روسيا بعد الثورة الشيوعية قلبت سياستها الخارجية رأساً على عقب

كان الهدف الذي تطلع اليه الشيوعيون الروس في بدء عهدهم احداث الثورة العالمية ولذلك لم يكن للمصالح الروسية القومية منزلة في نظرهم كمنزلتها في نظر الحكومات السابقة ، فاذاعوا بياناً يستنكرون فيه التوسع الامبراطوري وسياسة القوة واعلنوا تطبيق مبدإ تقرير المصير على جميع الشعوب التي كانت خاضعة للقياصرة من قبلهم . فاستقلّت دول البلطيق عندما اضطرت المانيا الى التخلي عنها بعيد عقد الهدنة في شهر نوفمبر من سنة ١٩١٨. وكذلك عادت روسيا في القرن العشرين الى ما كانت عليها في مستهل القرن الثامن عشر وليس لها على بحر بلطيق الاّ منفذ ضيّق عند مدينة لننراد ، وهو منفذ من أسهل السهل على دول البلطيق سدهُ

هل كانت روسيا السوفيتية صادقة النية في ما فعلت وهل كان في وسعها ان تكتفي بما تمّ وتقف عنده اذا كان في نيّتها ان تكون في الطبقة الاولى بين دول اوربا ؟

ليس ثمة ريب في ان الانقلاب الذي احدثهُ الشيوعيون في سياستهم الخارجية كان وفقاً لتعاليمهم . وما زال هناك امل في احداث الثورة العالمية فالقواعد والمبادىء القديمة التي اتجه اليها ايثان الرهيب وبطرس الاكبر ليس لها شأن كبير عندهم . ولكننا عندما نتأمل في أحوال روسيا في تلك الفترة التي تلت الانقلاب الشيوعي لا يسعنا الاّ الظن ان الضرورة قضت على اقطاب الشيوعيين بالنهج الذي نهجوهُ فحولوا «الضرورة الى فضيلة» وطنطنوا بها . فالجيش الروسي في سنتي ١٩١٧ و ١٩١٨ كان ضعيفاً ، والحرب العالمية التي كانت قد دامت اربع سنوات كانت قد انهكت البلاد ونزفت دماءها . وكان في روسيا حينئذٍ قوات معادية للثورة الشيوعية تتحفز للوثوب عندما تسنح الفرصة . فالحكمة كانت في ازالة اسباب الضعف بالتخلي عن ولايات البلطيق لخصمها الكبير — المانيا — في صلح برست ليتوفسك . ومع ذلك تدل الكتابات السياسية الروسية ان لنين نفسه كان متمسكاً في التخلي عن ولايات البلطيق مع ادراكه لضرورة ذلك . وما كادت تعقد الهدنة وترتفع

يد المانيا عن هذه الولايات حتى حاولت القوات الروسية الاستيلاء عليها واعادتها الى الحظيرة الروسية ولكن هذه الدول الصغيرة دافعت واستغاثت وفازت بتأييد الحلفاء في استقلالها هذا فلست روسيا بذلك في سنة ١٩٢٠ . ومما لا ريب فيه ان اقطاب الاتحاد السوفيتي كانوا يواجهون في بدء عهدهم بالحكم مشكلات اجتماعية وسياسية وحربية كبيرة فأقنع ترونسكي زعيمهُ لنين بوجوب تأمين حدودهم الغربية للتفرغ للمشكلات المتعددة فعقدت روسيا مع دول البلطيق معاهدات سلام اعترفت فيها باستقلال هذه الدول وبتخليها عن كل حق من حقوق السيادة عليها . وأيد ذلك الاتفاق مع الدول الغربية . وكذلك ما كادت سنة ١٩٢٠ تشرف على ختامها حتى ظن متتبعو احوال البلطيق ان روسيا تخلت عن امانيها فيه

ولكن هذا الظن كان خاطئاً . لأن الروسيين اخذوا يشون الدعاية الشيوعية في هذه البلدان رغبة في تشجيع احزاب شيوعية صغيرة فيها على النشاط السياسي فتسقط الحكومات القائمة وتتولى هي الامر فيها . فكأن روسيا حاولت ان تسترد بأساليب الثورة ما عجزت عنهُ بالحرب والسياسة . نعم ان الحكومة الروسية انكرت تبنّيها في هذا السبل . ولكن الكومنترن او الحزب الشيوعي الروسي مضى في عمله هذا بدافع من الرغبة في نشر الثورة الشيوعية ولعلمه بأنهُ اذا قامت حكومات شيوعية في هذه البلدان مهد الطريق لانضوائها في نطاق الاتحاد السوفيتي فتعود روسيا السوفيتية كما كانت روسيا القيصرية تطل على مياه بحر البلطيق من سواحل بلدان تابعة لها او في حكم التابعة لها

ولكن الكومنترن أخفق في ما سعى اليه عند ما قامت محاولة شيوعية في استونيا لقلب حكومتها وجارتها البلدان الاخرى مما اثبت ان ارض البلطيق ليست بالتربة الصالحة لنمو البذور الشيوعية

فامتنعت الحكومة الروسية عن التأثر لقمع الحركة الشيوعية في هذه البلدان . بل ان تحسن العلاقات الروسية بدول البلطيق جارى تحسن الحالة الاوربية واستقرارها في الفترة السابقة لقيام النازي في المانيا . وأحست دول البلطيق بازدياد شبح الخطر عنها فتنفست الصعداء ، وعادت الثقة فاستحكمت أواصرها بعقد معاهدات تجارية واسعة النطاق ثم تلتها اتفاقات سياسية غرضها جميعاً المحافظة على الحالة الراهنة في شرق أوربا . وكان آخرها مواثيق عدم الاعتداء التي عقدت سنة ١٩٣٢

ولكن الاساس الذي قام عليه هذا التعاون الودي بين روسيا وجاراتها البلطيقيات كان امتناع هذه الجارات عن الحيلولة دون وصول روسيا الى البحر . ان الف سنة من التاريخ أثبتت لروسيا ان مصلحتها تقتضي الوصول اليه . وهي في حالتها الجديدة أشدما تكون حاجة الى مرافىء لتفيا وأستونيا ، ولا سيما لان هذه المرافىء كانت متصلة قبل الحرب الماضية بمراكز الانتاج الروسي بشبكة الحديد والترع والانهار ، وإذن فاستقلال هاتين الدولتين (لتفيا واستونيا) رهن بجاراتها لروسيا في تحقيق هذه الرغبة . وأدركت هاتان الدولتان حقيقة موقف

روسيا فأتاحتا لها كل تسهيل يستطاع على سكك الحديد وفي المرافىء وخصتها بتفضيل جمركي. وقد كان هذا الاتفاق في مصلحة الفريقين

فلما قامت دولة النازي في المانيا ووضحت أغراضها البعيدة وأساليبها، غيرت روسيا سياستها. فعندما كان لعصبة الامم ومبدإ السلامة الاجماعية المنزلة التي كانت لها من سنوات اعتقدت روسيا أن العصبة والسلامة الاجماعية تضمنان مصالحها كما تضمن مصالح الدول الاخرى. وكانت روسيا حينئذ قد انصرفت — ولو الى حين — عن فكرة الثورة العالمية وعمدت الى الاصلاح الداخلي، فكانت مصلحتها في استتباب السلام والاستقرار الدولي. فاذا استبدا بغير ضامن لمصالحها في الغرب الاحتفاظ بدول مستقلة تبيح لها الوصول الى البحر بالاتفاق المتبادل. ولكن ما حدث في العصور المتوسطة وفي سنة ١٩١٤ حدث في سنة ١٩٣٨ و١٩٣٩ ذلك ان المانيا عدّدت مسالك هذا البحر الذي لا تستغني عنهُ روسيا، يبسط نفوذها على مياهه وسواحله. ورسخ في أذهان أقطاب الكرملين ان أحد أهداف السياسة النازية الى التوسع في الشرق، فخشيت روسيا أن يمد أقطاب النازية الى الاقليات الالمانية الكبيرة في لتوانيا ولتفيا واستونيا فيستعملوها للضغط على حكومات تلك الدول، ومما لا ريب فيه ان روسيا كانت تعتبر خضوع تلك الدول للنفوذ الالماني في منزلة الانتحار لها

كانت روسيا أضعف من المانيا حتماً في بحر بلطيق. ليس لها مرفأ روسي عليه الاّ مرفأ لننغراد. وهو بعيد عن مسالك البحار الحرّة، تتجمد مياههُ في الشتاء، ومعرّض للحصر من قبل الدولة التي تسيطر على خليج فنلندة. يقابل هذا ان المانيا كانت سيدة البحر لها فيه اسطول قوي ولحكومتها في عواصم بلدانه منزلة عالية ونفوذ عظيم

وبدا لروسيا السوفيتية انهُ ما زالت المانيا قاصرة جهدها على اوربا الوسطى فلروسيا ان تطمئن ولكنها عند ما تبينت في خططها نية لا ريب فيها على اجتياح بولندة — على ان يكون هذا الاجتياح مرحلتها الاولى في الاندفاع الى الشرق — قررت روسيا ان تعمل. وسواء اكان هناك اتفاق سابق بين مولوتوف وريبنتروب على اقتسام بولندة ام لم يكن، فالامر الذي لا ريب فيه ان روسيا غزت شرق بولندة لصدّ الالمانيين. ثم عمد ستالين الى ما عمد اليه إيڤان الرهيب، اذ اغتنم فرصة انشغال المانيا بالحرب في غرب أوربا، فكسب مزايا جديدة لدولته في دول البلطيق الثلاث — وما زال الاتفاق مع فنلندة موقوفاً — وأملى على المانيا ترحيل أقليتها الالمانية من بلدان البلطيق حتى يستريح منهم أبد الدهر، من ناحية استعمالها أداة للضغط على حكومات تلك الدول واخضاعهم لنفوذ برلين. ولو أن ستالين أراد فون ريبنتروب وزيراً لهُ يحقق لهُ كل هذا لما استطاع على ان يحققهُ على وجه أتمّ

يوميات دولية

١ — تموت لتحيا[1]

بولندا بين طي التاريخ ونشره

«تموت لتحيا» ! بهاتين الكلمتين البليغتين وصف غاندي الموقف الباسل الذي وقفته بولندا في الدفاع عن كيانها القومي واستقلالها . وانباء الشركات البرقية ومحطات الاذاعة العالمية مجمعة على ان البولنديين لا يزالون يقاومون ويستبسلون في المقاومة على الرغم من توغل جحافل الحر والسمر في بلادهم من الشرق ومن الغرب . ومقاومتهم هذه حركت اعجاب العالم بهم حتى اعجاب اعدائهم . واذا كان مصير هذه المقاومة الى الانهيار الآن لتألب ماردين من مردة الجيوش الحديثة عليهم، فليست هذه المرة الاولى التي نكبت بها الامة البولندية في تاريخها العريق المرتد الى الف سنة من يومنا هذا . فقد اجتاحتها في فترات شتى من تاريخها جيوش القواد والملوك ودماتها سنابك الخيل وحدم استقلالها ومزقت وحدتها ولكنها كانت دائماً تتغلب على المحن ، محتفظة بروحها القومية حية على الزمن ، تنهض من الانقاض المنهارة أمامها ووراءها وبين يديها نهوض «الفينكس» طائر الاساطير من رماده

وسبب هذه المحن المتوالية على الامة البولندية انها تقطن في منطقة من اوربا اكثرها سهول لا حدود طبيعية لها تسهّل الدفاع عنها، وهي واقعة بين عنصرين من أكبر العناصر الاوربية العنصر الصقلبي في الشرق والعنصر التوتوني في الغرب فكانت ارضها دائماً ميداناً للقضاء بينهما. فالامة البولونية ضحية موقعها الجغرافي

***

اجتمعت عليها روسيا وبروسيا والنمسا في سنة ١٧٧٢ فاتفقت على ان تقتطع كل منهم منطقة تضمها اليها وقد أفرغ هذا التقسيم في معاهدتين وقعتا في مايو وأغسطس من تلك السنة . وسمح للبقية الباقية من بولندة بعد هذا التقسيم — وهي المنطقة المتوسطة — ان تحتفظ باستقلال خاضع لآراء الدول الثلاث . وهذا شبيه بما روته الانباء البرقية عن مقترحات تعد الآن للفصل في حالة بولندا . فقد روي أن المانيا ستحتفظ بدانتزج والممر البولندي وسيليزيا العليا وتضم روسيا المناطق التي يقطن فيها اكرانيون وروسيون يعرفون بالروسين البيض . وينشأ من المنطقة

(١) يومية كتبت يوم ١٩ دجمبر سنة ١٩٣٩

المتوسطة دولة صغيرة خاضعة لبرلين — على نمط بوهيميا وموراڤيا — تكون كالحجز بين روسيا والمانيا ومن المحتم ان مصير هذا الاقتراح معلق بمصير الحرب نفسها

***

ثم اقتسمت بولندة مرتين بين الدول الثلاث التي تقدم ذكرها في أواخر القرن الثامن عشر (١٧٩٢ و ١٧٩٥) وعند ما نشبت الثورة الفرنسية — وكان من مبادئها مبدأ القومية — سارت الجيوش الفرنسية مظفرة مرفوعة الاعلام الى النمسا وبروسيا فتطلع البولنديون الى استرداد استقلالهم بأمل ورجاء وجاءهم نبوليون فأنشأ غراندوقية بولندة بعد صلح تيلسيت سنة ١٨٠٧ ولكنها لم تضم جميع المناطق التي يقطنها بولنديون فلما زحف نبوليون الى غزو روسيا عقد البولنديون آمالهم على فوزه لكي يضموا المناطق البولندية التابعة لروسيا ولكن نبوليون أخفق في كسر روسيا وبعد انقضاء سنوات سقط وعقد مؤتمر ڤينا للحكم في مقدرات الامم الاوربية فأيد هذا المؤتمر قسمة بولندة التي تمت سنة ١٧٩٥ بين روسيا والمانيا والنمسا وظلت الحال كذلك الى مستهل الحرب الكبرى سنة ١٩١٤

عند ما نشبت الحرب سنة ١٩١٤ وجد البولنديون أرضهم ساحة قتال عنيف وأبناءهم يحاربون بعضهم بعضاً في الميدان الشرقي لان منهم من كان مجنداً في الجيش الروسي ومنهم من كان مجنداً في الجيش الالماني أو النمسوي وكانت روسيا في صف والمانيا والنمسا في صف مقابل. وكان رأي الزعماء البولنديين مختلفاً حيال الوسيلة التي تمكنهم من تحقيق أمانيهم القومية فادروفسكي الموسيقي المشهور كان يرى ان تؤيد الامة البولندية قضية الحلفاء وبلسودسكي القائد المشهور كان يرى ان الخطوة الاولى لتحقيق الأماني القومية هي القضاء على روسيا فساعد المانيا بجيش صغير وعندما غلبت روسيا على أمرها في بولندة وخرجت منها ، أنشأت المانيا حكومة بولندية شبه مستقلة. الا ان بلسودسكي أدرك في ربيع سنة ١٩١٨ ان المانيا ليست خالصة النية من حيث انشاء بولندة مستقلة فانقلب عليها وانحاز الى رأي بادروفسكي فاعتقل وسجن واتهم بأنهُ عدوه ولكنهُ فرَّ من السجن بحيلة بارعة وظل يحارب حتى انهارت امبراطورية النمسا والمجر وخارت قوى المانيا فعقد الصلح وقامت بولندة الجديدة على انقاض تاريخها بعد ان جعل الرئيس ولسن وحدتها واستقلالها من شروطه الاربعة عشرة المشهورة

وكذلك نهض طائر الأساطير من رماده مرة أخرى . وغدت بولندة الجديدة في المرتبة الاولى بعد الدول الكبرى في أوربا

وها هي ذي الآن تعاني محنة أخرى من المحن الكثيرة التي عرفها تاريخها العريق ولكن الصفات التي مكنتها وهي تحت نير الضغط والاستبداد من الاحتفاظ بحيوية الشعب والاتصال

بتقاليده وآدابه المجيدة ودرس لغته في حين كان هذا كلهُ محظوراً عليها لا بد ان تمكنها من أن تهض نهضة أخرى . ان أمة تنجب أمثال كوبرنيكوس واضع علم الفلك الحديث وشوبان ملحن شجون القلب الانساني ومدام كوري مكتشفة الراديوم وغيرهم لا يمكن ان تبقى ذليلة . فقد ضمت هذه الاسماء الى كوكبة البقريين الذين رفعوا الانسانية قليلاً فوق مستوى المعى الترابي نحو العرش الاعلى . وأما جالبو هذه المحنة عليها — ولا نقول الشعوب — فستضم أسماؤهم الى كشف كبار المدمرين في التاريخ المحتوي على آتيلا وهولاكو وجنكيزخان

٢ — الحرب لا تتجزأ (١)

والسلام الذي يطلبهُ هتلر هو هدنة بين حربين

كان الشعار السياسي الذي ساد دوائر الدول الاوربية في السنوات التي سبقت الحرب الحبشية وتلتها « ان السلام لا يتجزأ » وهو قول وضعهُ سياسي سوفيتي والغالب انهُ الرفيق مايسكي سفير الاتحاد السوفيتي في لندن ،وذلك عندما كان الاتحاد السوفيتي يخشى المانيا واليابان في وقت واحد

ومعنى هذا القول أن سلامة كل أمة هو جزء من سلامة الدول جميعاً . وان كل تهديد يوجه الى سلامة أمة انما هو تهديد موجه الى سلامة الجميع . وليس في هذا القول جديد الا أفراغه في هذا القالب الموجز الذي يستوقف النظر . فارتقاء الحضارة الحديثة افضى الى ترابط الامم واشتباك مصالحها . فأصبحت العزلة التامة في هذا العصر متعذرة . وقد اعترف واضعو ميثاق جامعة الامم بهذا المبدإ عندما قالوا في المادة العاشرة من الميثاق أن أعضاء الجامعة يتعاونون في رد كل اعتداء موجه الى أحدهم .ثم في المادة السادسة عشرة حيث أقروا الاساليب العملية الفعالة لهذا التعاون . واذا كانت الجامعة قد اخفقت في تطبيق هذه الاساليب تطبيقاً فعالاً فتاريخ السنوات العشر الماضية بينة ناهضة على صدق القول بأن « السلام لا يتجزأ »فالاعتداء على منشوريا في ١٩٣١ وامتناع الجامعة عن التصدي لوقفه أضعف من هيبتها فمهد السبيل لحوادث الحبشة فالتهاك معاهدة لوكارنو فضم النمسا فاقتطاع سوديتنا فاستباحة بوهيميا وموراڤيا فاكتساح بولونيا واخضاع دول البلطيق

***

ويقابل هذا أن « الحرب لا تتجزأ » . فالباعث المباشر على هذه الحرب القائمة الآن هو اعتداء المانيا على بولندا بغير أن تستفز النمسا الاولى مهما يبد دعاة المانيا ويعيدوا في أن

(١) برمية كتبت في ٧ أكتوبر ١٩٣٩ على أثر خطبة الفوهرر هتلر

استئزاز بولندا لالمانيا كان لا يطاق . وقد اشتدت عليها كذلك بدون أن تعرض عليها شروط التسوية التي زعم لويد جورج أن بولندا رفضتها . ومن هنا عزمت بريطانيا وفرنسا على التهويش بالعهود التي قطعتاها لها

ولكن الباعث الاصيل على هذه الحرب هو في قول المستر تشرلن « انقاذ اوربا من الخوف الدائم المتكرر من العدوان » . وقول المسيو دلاديه « انقاذ اوربا من ضرورة التعبئة كل سنة أشهر »

واذا كانت الاعمال الحربية التي تمت حتى الآن قد سحبت بولندا المستقلة من خارطة اوربا فهذا المسح لا يعني ان النظام قد استقر في شرق أوربا استقراراً يجعل التغني في الحرب امراً لا مسوغ له . اذ كيف يعقل ان يكون هناك استقرار في البلاد الممتدة من جبال السوديت الى ما وراء نهر الفستولا حيث يقطن ثلاثون مليوناً على الاقل من التشك والسلوفاك والبولنديين يسامون أشد ألوان الخسف والظلم وهم يتحفزون كل يوم للانتفاض في سبيل استرداد ما سلبوه من حياة قومية مستقلة حرة لها من تاريخهم وثقافتهم وادبهم أقوى سند ؟

واذا كان المر مستر لا يفتأ يذكر معاهدة فرساي وما فيها من مظالم كلما وقف يخطب فلماذا لا يذكر ان اخضاع هؤلاء اللاتين والاستبداد بهم شر من جميع مساوىء فرساي مجتمعة . واذا جاز لنا ان نأخذ الالمان بما يفرضونه على الشعوب التي يغلبونها في الميدان مقياساً فلنرجع الى معاهدتي بخارست وبرست ليتوفسك وهما المعاهدتان اللتان فرضتها المانيا القيصرية على رومانيا وروسيا في سنتي ١٩١٦ و١٩١٨ فان فيهما من ضروب الجور والتسلط ما يفوق المآخذ التي أخذت على فرساي أضعافاً مضاعفة

واذن فتغلب المانيا وروسيا على بولندا وتقطيع أشلائها الدامية ومحوها من صفحة الخارطة الاوربية الآن لا يمكن ان يقوم دليلاً على ان النظام قد استتب هناك وان العدل قد وضع في نصابه الحقيقي وان سياسة العدوان قد انتهت الى حد تقف عنده

والواقع ان جماعة النازي ما كانوا يرضون بمبدإ « ان السلام لا يتجزء » لانهم وجدوا ان أخذ كل دولة بمفردها كان أسهل عليهم فأبوا أن يدخلوا الا في مفاوضات ثنائية . وكما فعلوا في السلم يحاولون ان يفعلوا في الحرب اي انهم يريدون ان يجزئوا الحرب . فهم يقولون ان بولندا غلبت وانتهينا منها فلتتفاهم على اساسه الآن لعلهم يشغلون الناس بحديث السلام عما اقترفوه قوة وبطشاً

وهذه خطة وضع المر مستر لها القاعدة في كتابه كفاحي عندما قال ان الظافر اللبيب يمضي في فرض الطلبات على خصمه طلباً طلباً فتضعف مقاومة خصمه ويصبح وهو لا يرى في اي مطلب جديد مهما يكن مرهقاً سبباً لحمل السلاح

وقد طبق هذه القاعدة مرة بعد مرة . خرج من مؤتمر نزع السلاح وجامعة الامم وصرح انهُ بعد تسوية السار يحترم معاهدة لوكارنو حرفاً وروحاً وعقد اتفاقاً مع النمسا على احترام استقلالها السياسي لكي يمزقها ثم طالب بالسوديت على اعتبار أنها آخر مطلب جغرافي له في أوربا . ولكن ذلك كله لم يمنعهُ من نقض لوكارنو في مارس ١٩٣٦ وضم النمسا في مارس ١٩٣٨ واستباحة موراڤيا وبوهيميا في مارس ١٩٣٩

وكان فوزه في جميع هذه الاعمال بغير مقاومة تذكر فعزز من هيبته ومكن لرجاله من استعمال سلاحهم الفعال وهو « سلاح الهدم الداخلي » بالدعاية الهدامة على اختلاف أساليبها وما قوله الآن انهُ انتهى أو أوشك وان أمامه في شرق أوربا وشرقها الجنوبي عملاً يستغرق خمسين سنة الى مائة سنة وانهُ يبغي السلام لانهُ يعرف ويلات الحرب ويمد بنقص السلاح واحترام حدود هذه الدولة وتلك الا من قبيل ما قاله عشرات المرات قبلاً ولكنهُ ما أعلن مرة احترامهُ لمعاهدة ما او حدود دولة ما الا وهو عاقد النية على ان هذا الاحترام لا يدوم الا مدى ما تقضي بهِ مصلحته كما يراها

فالسلام الذي يطلبه على هذا الاساس « لا ينقذ أوربا من الخوف الدائم المتكرر من العدوان » على ما قال المستر تشمبرلين ولا يكون الا « هدنة بين حربين » على ما قال المستر دلاديه

٣ — تعديل قانون الحياد الاميركي (١)

لم تكد تنقضي عشرة أيام على توقيع ميثاق انقره حتى تلقت الدوائر الصحافية في القاهرة أنباء من الولايات المتحدة الاميركية بأن مجلس الشيوخ الاميركي أقر في الساعة التاسعة من مساء أمس (الجمعة ٢٧ اكتوبر) التعديل الخاص بمادة رفع الحظر عن شحن الاسلحة الى الدول المتحاربة ثم أقرَّ مشروع قانون الحياد في جملته باتفاق ٦٣ صوتاً على ٣٠ صوتاً فكان ذلك فوزاً كبيراً للرئيس روزفلت ومؤيديه ونصراً ثانياً للدولتين الديمقراطيين بريطانيا وفرنسا كان ميثاق انقره اولها

قضى مجلس الشيوخ خمسة أسابيع في مناقشة التعديلات المقترحة على قانون الحياد ارتفع فيها غير صوت واحد بالمعارضة من اقطاب عرفوا بمكانتهم السياسية والاجتماعية في الولايات المتحدة الاميركية كالسناتور بوراه والمستر هوفر والمستر نورد والكولونيل لندبرج . ولكن ذلك لم يحل دون انتهاء المناقشة الى نتيجتها المنطقية لان قانون الحياد المعدَّل اعراب يكاد يكون دقيقاً عن شعور الرأي العام الاميركي بوجوب بذل العون للدول الديمقراطية بكل وسيلة مستطاعة الا خوض الحرب . ولم يبق امام المشروع الا مرحلة رسمية فقط ينتظر ان يجتازها في ايام (٢)

يرتد أصل قانون الحياد الاميركي الى رغبة الشعب الاميركي في الاحتياط دون الانسياق

(١) بومية كتبت يوم ٢٨ أكتوبر ١٩٣٩ (٢) وقد اجتازها فعلا ووقعه الرئيس في ٤ نوفمبر

الى خوض حرب لا يريدها . فهم أن حكومة الولايات المتحدة الاميركية تؤثر على الغالب خطة الحياد الدولي . وفعلاً ما كاد ينقضي يومان على نشوب الحرب الثانية الآن حتى أعلن الرئيس روزفلت حياد دولة الولايات المتحدة . ولكن البلاد الاميركية بلاد صناعية كبيرة ويحق لها بحكم كونها دولة محايدة أن تصنع ما تشاء وتبيعه لمن يرغب فيه من الدول المتحاربة . الا ان هذا الحق خاضع لما يتفرع على حق الحصر البحري من زيارة وتفتيش ومصادرة . وهذا يطبعه يعرض السفن التجارية الاميركية للاصطدام بالسفن الحربية التابعة للدول المتحاربة وربما نشأت عنهُ حوادث دبلوماسية قد تكره الحكومة الاميركية على خوض الحرب بسببها دفاعاً عن الرعايا الاميركيين والعلم الاميركي الخافق على سفنها

ولذلك كان الرأي ان الامتناع بتاتاً عن تصدير الاسلحة قد يكون خير وسيلة لصيانة الحياد الاميركي . وكان الأفق الدولي مليداً في أثناء الازمة الحبشية (١٩٣٥) فوضع قانون الحياد على جناح السرعة وأقر ثم عدل تعديلاً يسيراً بعيد نشوب الحرب الاهلية الاسبانية (١٩٣٦) لانهُ ثبت ان فصوصه لا تشمل حرباً أهلية

هذا القانون يقوم بوجه عام على قاعدتين أولاهما — إباحة تصدير المواد التي لا تعتبر مواد حربية على ان يوفَّى ثمنها قبل تسلمها . ثم يجب ان تنقل على سفن غير أميركية . والحكمة في توفية الثمن مقدماً الحيلولة دون تراكم ديون للدول المتحاربة في أميركا قد تعجز بعد الحرب او تمتنع عن إيفائها . ثم قد يكون من شأنها ان تحرك الدائنين الاميركيين على الدعوة الى الحرب لمساعدة الدول المدينة لهم لكي يضمنوا بفوزها إيفاء ديونهم

والقاعدة الثانية تفادي تعرض السفن الاميركية لسفن الاعداء وما قد ينشأ عن ذلك من حوادث تسبب جفاء وقد تكره اميركا على خوض الحرب

هذا هو القانون في مجمله قبل تعديله . ولكن فريقاً كبيراً من المشتغلين بالسياسة في أميركا ومن حملة الاقلام ودعاة تأييد الديمقراطية وكبح جماح الدول المعتدية ذهبوا الى ان الاحتفاظ بهذا القانون مشجع على الاعتداء قبل نشوب الحرب . ومضعف للدول التي ينتظر ان يعتدى عليها بعد نشوبها . وكان رأيهم ان المايا مسوقة حتماً الى الاعتداء بسبب خططها السياسية فيجب ان لا ترى في الاحتفاظ بهذا القانون سبباً يسوغ لها الاعتقاد بأن الولايات المتحدة نفضت يدها من كل عون يذل للدول الديمقراطية . ولذلك كتبوا كثيراً وخطبوا مطالبين بتعديل القانون تعديلاً يكفل عون الدول الديمقراطية وبقي الولايات المتحدة في الوقت نفسه من خطر الانسياق الى الحرب . وجميع الاستفتاءات الشعبية التي قام بها معهد كمعهد « جالوب » ومجلة كمجلة « فورتشون » أيدت هذا الرأي تأييداً لاريب فيه . ولذلك اقترح رسمياً تعديل القانون وكان

الظن أن التعديل يقرقبل انفضاض «الكنغرس» الاميركي في الصيف ولكن مجلس الشيوخ امتنع حينئذ عن بحث الموضوع فحذره الرئيس روزفلت من عاقبة امتناعه وصرح انهُ اذا سارت الحوادث السير الذي يتوقعهُ فسيدعو الكنغرس الى اجتماع استثنائي للنظر في قانون الحياد وفعلاً دعاه في منتصف سبتمبر وبدأ الاجتماع الاستثنائي يوم ٢١ سبتمبر الماضي . فما مغزى هذا التعديل ؟

اولاً — الغي الحظر على شحن الاسلحة الى الدول المتحاربة . فيحق للفريقين ان يبتاعا في اميركا ما يحتاجان اليهِ بلا تمييز بينهما . ولكن الغاء الحظر مقيد بقاعدة « ادفع وانقل » او «ادفع وشيل» ومعنى هذا ان الدولة التي تريد ان تبتاع طائرات اميركية عليها أن تدفع الثمن فوراً قبل ان تنتقل ملكية الطائرات اليها . وثانياً عليها أن تنقل هذه الطائرات بسفن غير اميركية والحكمة في هذا التقييد ظاهرة وقد اشرنا اليها في ما تقدم

ومغزى هذا ان بريطانيا وفرنسا تستطيعان دون المانيا ان تبتاعا ما تحتاجان اليهِ في اميركا وذلك لان المانيا لا تملك من النقد الاجنبي ما يمكنها من توفية الثمن فوراً . وأما بريطانيا وفرنسا فلهما في أميركا ١٧٥٠ مليون دولار سبائك ذهبية وودائع مالية مختلفة . ثم ان السفن الالمانية التجارية اختفت من مسالك البحار منذ نشبت الحرب . وأما السفن البريطانية والفرنسية فكثيرة تمخر البحار السبعة وتحميها سفن الاسطولين . ولا يخفى أن المصالح الاميركية كانت متوقعة ما حدث ولذلك لم تنِ يوماً عن منع الطائرات الحربية وغيرها من الاسلحة التي ينتظر ان يكثر الطلب عليها وجميعها معدة للسفر عند ما يوضع قانون الحياد المعدل موضع التنفيذ

ثانياً — الغيت مهلة التسعين يوماً بين تسلم البضاعة وتوفية ثمنها وجعل الدفع فوراً (كانت هذه المهلة مقترحة في مشروع التعديل) والغالب ان الاتفاق على الغاء هذه المهلة كان ترضية لجماعة المعارضين في تعديل القانون ومفاداة لمد أجل المناقشة قبل القرار الاخير

ثالثاً — حظر السفر على الاميركيين بسفن تابعة للدول المتحاربة وحظر دخول السفن الاميركية التجارية مناطق معينة يحددها الرئيس وتعرف « بمناطق الحرب » . وذلك لكي لا تعرض الارواح الاميركية والسفن الاميركية لحوادث قد يكون من تأثيرها الخروج بالحكومة الاميركية عن نطاق الحياد الدولي الذي التزمته

إن ما نقلتهُ الينا أنباء القتال في الميدان الغربي عن تفوق الطيارات الاميركية التي من طراز « كرتس » ينطوي على اشارة يسيرة الى ما يجوز لنا ان نتوقعه من تمزيز قوات بريطانيا وفرنسا الحربية باستيراد ما تحتاجان اليهِ من أميركا علاوة على التأييد الأدبي . فالقرار الذي اتخذه مجلس الشيوخ الاميركي فوز عظيم الشأن للدولتين الدمقراطيتين يعزز من شأنه وتأثيره انهُ تم بعد انقضاء تسعة أيام فقط على عقد ميثاق أنقرة

باب المراسلة والمناظرة

مفردات النبات

حضرة رئيس تحرير المقتطف الاغر

استسمحكم عفواً في تأخر ردّي على ما اشرتموه للأمير مصطفى الشهابي في مقتطف يوليو من ملاحظات على مقالاتي في « مفردات النبات بين اللغة والاستعمال » التي كنت اشرها تباعاً في مقتطفكم. ولقد سرّني اهتمام الأمير وتتبعهُ لها بالنقد والكتابة فان الحقيقة بنت البحث. فجزاه الله احسن الجزاء. وها كم ردّي مرتباً على تلك الملاحظات واحدة فواحدة

(١) ذكرت في جزء اكتوبر سنة ١٩٣٦ انهُ « يقال للكزبرة النقدة بالكسر والفتح مع كسر القاف والجلجلان » فقال الأمير ان « قاف النقدة ساكنة . اما الجلجلان فهو ثمر الكزبرة » ولا جدال في ان بزر الكزبرة يُعرف بالجلجلان كما جاء في المعجمات العربية ولكن ألا تجوز هذه التسمية كما يطلق (القرّض او القرّظ) وهو ثمر السنط على شجر السنط نفسه من قبيل تسمية الشيء ببعضه في اصطلاح البائعين

فقد جاء في مؤلف المستشرق الهولندي دوزي — عما فات المعجمات العربية — المطبوع بليدن سنة ١٩٢٧ جزء ثان ص ٣٢٩ ما ملخصه : —

« ان القرض أو القرظ = acacia » وهو السنط

أما كسر قاف (نقدة) التي قال الامير أنها ساكنة ، فقد جاء في الجزء الثاني من تاج العروس ص ٣٠٨ ما يأتي : « النقدة بالكسر وتفتح مع كسر القاف الاخيرة — عن الهروي — الكزبرة الخ »

(٢) وذكرت في جزء يوليو سنة ١٩٣٦ ان « الأرز واحدته أرزة شجر معروف من الصنوبر يقال له (الشربين) أيضاً » . فقال الامير « لا لزوم لفتح راء الأرزة . والأرز من الفصيلة الصنوبرية وليس من الصنوبر . وهو غير الشربين . ويخلط بعض أصحاب المعجمات القديمة بين الارز والصنوبر او يعرفون هذا بذاك فيجب على علماء اليوم ان يتصدوا عن مثل ذلك » الى آخر ما أورده الأمير خاصًّا بأهم أشجار الفصيلة الصنوبرية مما تنبتهُ الطبيعة في جبال الشام

وأود أولاً توجيه النظر الى أني لم اقصد فتح راء الأرزة التي وردت مفتوحة خطأ مطبعيًّا ودليلي على ذلك ان عنوان هذا المفرد النباتي « الارز » بتسكين الراء فيجب ان تكون واحدته أرزة ساكنة الراء كذلك كما لا يخفى

اما كون الأرز ليس من الصنوبر وهو غير الشربين فحسبي ان اورد هنا ما جاء في المعجمات العربية مما يثبت ان الأرز من الصنوبر كما ذكرت . فقد جاء في معجم البستاني المطبوع سنة ١٩٢٧ ص ٢٦ ما نصه :

«الارز بسكون الراء ذكر الصنوبر الخ » وجاء في تاج العروس الجزء الرابع ص ٣ ما نصه «الأرز بالفتح ويضم شجر الصنوبر»

اما كونه غير الشربين فحسبي ان أورد هنا ما جاء في مؤلف دوزي الآنف الذكر جزء اول ص ٧٤٢ تحت مادة شربين : «انهُ معرب عن اللغة الارامية يقابلها في اللغة الفرنسية (le cèdre ordinaire) وهو الأرز» وجاء في ص ٩٥ من معجم المصطلحات الفنية للعلوم والآداب والفنون باللغتين الفرنسية والتركية لمؤلفيه : تنير وسنايان المطبوع بالقسطنطينية سنة ١٨٩٩ تحت مادة (سدر ، شربين ، ارزة Cèdre, sapin, Brin — سدر لبنان ، شجر سليمان Cèdre du Liban) فهل لنا بعد ذلك ان نقول ان الأرز هو الشربين او انهُ بمايره وهل لنا أيضاً ان نقول باتفاق المعجمات العربية — التي وصفت في قول الأمير بأنها قديمة — مع المعجمين المذكورين فيما سلف أوليس لنا ان نقول ذلك ؟ وليسمح لي الأمير ان ألفت النظر الى ان ما أورده من اسماء أهم أشجار الفصيلة الصنوبرية مما تنبتهُ الطبيعة في جبال الشام انما هو صحيح في ذاته من حيث بلاد الشام كما جاء في كتاب النبات لمؤلفيه جورج بوست الذي نقل الأمير تلك الاسماء عنهُ . ولا يغرب عن فكره انها تختلف باختلاف البلدان العربية . فمثلاً الشربين أو السرو في الشام هو السرو في مصر وبلاد الجزائر . والعرعر في الشام هو الشربين في بلاد الجزائر . اما العرعار في بلاد الجزائر فهو من جنس Thuya الى غير ذلك

(٣) اورد الأمير اني قلت في جزء اكتوبر ١٩٣٥ أن الحروب بضم الحاء وأن الصحيح عنده أنها بحاء مفتوحة . وهذا صواب أما ضبطها بالضمة فوقع خطأ مطبعيًّا بدليل اني لم أشر الى الضم بالكتابة لا بالشكل كما أفعل دائماً في الكلمات التي يلتبس الأمر في ضبطها

(٤) لم اذكر في جزء يوليو ١٩٣٥ ان الكباد (ككتان وهي لفظة وردت في التاج) تطلق في الشام على شجرة الأترج الى آخر ما ذكره الأمير . وليسمح لي مرة اخرى ان الفت النظر الى ان كلة كباد التي يطلقونها هناك على شجرة الأترج انما هي صحيحة من حيث استعمالها في بلاد الشام كما جاء في كتاب النبات لمؤلفيه بوست . ويؤيد ذلك ما جاء في مؤلف المستشرق دوزي الذي سبقت الأشارة اليه . ففيه : كباد = bigarade بالفرنسية ولكن قد يطلق كباد ايضاً على bigarade بالفرنسية وهو النارنج المعروف عندنا كما يطلق على pomme d'orange وهو نوع من الليمون كما جاء في مؤلف دوزي . وفي بلاد الجزائر يطلقون الأترج على citron

بالفرنسية الذي هو نوع من الليمون كما جاء في تاج العروس جزء ٢ ص٢٨٢ وعبارته « الكباد ككتان نوع من الليمون » وعلى ذلك فالتسمية قد تختلف باختلاف البلدان

(٥) وصحيح اني أوردت في جزء يوليو سنة ١٩٣٥ تسعة انواع من الكمء دون أن أسميها بأسماء عربية الى آخر ما ذكره الأمير

ولكن ليسمح لي في هذا الصدد ان أقرر ان مقالي عن الكمء كان في البداية ولم يكن من غرضي حينئذٍ وضع اسماء عربية لجميع النباتات التي أكتب عنها مع علمي بامكان ترجمتها بعد الالمام الى حدّ ما باللغتين اللاتينية واليونانية . فقد كان غرضي إيراد ما جاء في المراجع المعول عليها من أسماء على قدر ما يسمه الجهد . والذي يؤيدني في ذلك ان الامير حينما أراد ان يذكر أهم أشجار الفصيلة الصنوبرية في جبال الشام اقتصر على ما جاء في كتاب بوست فقط ولم يذكر ما جاء عن هذه النباتات في المراجع العلمية الاخرى من أسماء عربية

(٦) ويقول « اني اتبعت القاعدة المارة الذكر في بحثي عن شجر القيقب (الاسفندان) في جزء يونيو سنة ١٩٣٧ فقلت الاسفندان الابيض والاسفندان الجبلي والاسفندان الجبزي والاسفندان العادي . ولكن هذه الالفاظ هي ترجمة ما يقابلها بالفرنسية او الانكليزية لا ترجمة أسمائها العلمية . ومن الاصلح كما هو معروف ترجمة الحروف العلمية الدالة على الانواع النباتية لانها مشتركة بين الامم » الى آخر ما ذكره . وأقول إن هذا الرأي حصيف وبديع جدا لو أمكن اتباعه . ولكن هذا لا يتحقق الا اذا تضلع الباحث من اللغتين اللاتينية واليونانية مما لم يتوفر لي الى الآن . ولا يفوتني أن أذكر هنا اني عند ما كتبت هذا البحث اعتمدت على معجم المصطلحات الفنية الآنف الذكر وهو لا يذكر غير الكلمة الفرنسية ومقابلها من التركية والعربية احياناً

(٧) ويقول اني جعلت لفظة المنجو العامية (جزء اول سنة ١٩٣٦) اسماً اصليًّا لشجرة الأنبج وأن المعروف أن النبات انما يسمى باللفظ العربي او المعرب قديماً ثم تذكر اللفظة العامية ويشار الى كونها عامية . وقد كنت احب أن لا يفوت الأمير أن هذا الاسم العامي هو المتداول في مصر وانني أردت تقريب الفائدة الى أقرب المطلعين ممن حولنا

(٨) ويؤاخذني الأمير بعدم استعمال الالفاظ التي أقرها العلامة الدكتور امين باشا المعلوف في المجلدين السابع والثامن من مجلة المجمع العربي بدمشق ، وأنا مع احترامي الصادق للدكتور المعلوف باشا أرى من الانصاف أن أتقيد أنا أو غيري بهذه الألفاظ ما دامت هناك الفاظ تساويها في القيام بالغرض ، على اني مع ذلك لم تتح لي فرصة الاطلاع على هذين المجلدين من المجلة المذكورة

وهناك ملاحظات اخرى لا اراني في حاجة الى الرد عليها لأنها من قبيل هذه الملاحظة الاخيرة . وقبل ان اختم هذه الكلمة اشكر لحضرة الأمير مصطفى الشهابي حسن عنايته بتتبع مقالاتي في هذا الموضوع ١٠ اغسطس ١٩٣٩ محمود مصطفى الدمياطي

حول رسائل الدكتور اسماعيل أدهم

حضرة رئيس تحرير المقتطف

بعد تقديم واجب التحية : قرأت في العدد الاخير من المقتطف بحثاً للدكتور اسماعيل احمد أدهم عن اتجاهات الشعر المصري . وقد نسب اليَّ الدكتور أدهم رأياً قال أني حدثته به . وهذا الرأي يتناول الادب المصري عامة وشعر نطران خاصة

ولقد أفهم ان يروي عني خبراً ولكن نقل الآراء في هذا المعرض من الامور غير المألوفة الاَّ ان يكون الرأي مدوناً في كتاب او مقتبساً من محاضرة او غير ذلك مما يكون صاحبه قد هيأه للنشر وانهُ من المتعين عند رواية الاخبار في كل حديث ان تكون مطابقة الواقع ولذلك يجوز نقلها في كل حال . أما أحاديث السمر التي لا يعرف المتحدثون فيها ان كلامهم سينشر فهي من أسرار المجالس ان كانت . على أني انما أتلطف بهذه المقدمة تحاشياً من صريح التكذيب ومنعاً للاحراج وأعلن أني لا أرى الرأي الذي نسبهُ اليَّ الدكتور وليس من حقه ان ينشره ان كنت حدثتهُ به لاني لا أعلمهُ يزورني ليشرفني بعقد حديث صحفي معي

على أني بعد ذلك لم أحدثهُ بهذا الرأي وعليهِ مني أزكى التحيات وأطيب السلام

عبد اللطيف النشار

حول مناظرة « مباحث عربية »

روى الدكتور بشر فارس في مقاله «حول مباحث عربية» المنشور في مقتطف اغسطس ١٩٣٩ (صفحة ٣٥٦) ان الدكتور اسماعيل احمد ادهم اخذ فكرة النقد الباطني والخارجي عن الاستاذ صديق شيبوب. ثم تلقينا منهُ كتاباً من الاسكندرية نخطئهُ في قولنا ان ما اشار اليه ليس قرين الصواب لان الدكتور ادهم كان اسبق الى الاشارة الى هذه المسألة من الاستاذ صديق . وبعد ظهور مقتطف اغسطس كتب الاستاذ صديق في «البصير» مصححاً الرواية قال « حقيقة ما جرى ان لا الدكتور ادهم اخذ عني ولا أنا أخذت عنه . ومثل هذا التقسيم يدور في ذهن كل اديب مارس قليلاً الكتابة باللغة العربية . وقد جرى اني بينما كنت اطالع «مباحث عربية» نبهت الى هذا المأخذ ثم جاءني الدكتور ادهم زائراً وتحدثنا عنهُ فأشار في معرض حديثهِ الى هذا النقد فأجبته انهُ خال في خاطري» . فوجبت علينا الاشارة الى ذلك وضاً للحق في نصابه

باب الأبحاث العلمية

أنواع القنابل

التي يستهدف الناس خطرها من الجو

لا يخفى ان عواصم الدول الاوربية ، والعاصمة المصرية وكذلك الاسكندرية ، وغيرها من مدن البلاد المختلفة قد اعدت المعدات لوقاية الشعب من اضرار الحملات الجوية . ففي الحرب الحديثة تختلط الاهداف العسكرية البحتة بالمدن الآهلة بالسكان والعامرة بالصناعة مع احتمال خلوها من المعاقل والحصون وحشد الجيوش وبعدها عن خطوط القتال

والخطر المترتب من الجو ، هو خطر القنابل المختلفة التي ينتظر ان تمطرها الطائرات المهاجمة وهي ثلاثة اصناف بوجه عام

اولاً — القنابل المتفجرة وهي احجام متفاوتة وقد تبلغ من الضخامة بحيث تحتوي القنبلة منها على طن من مادة المتفجرة . فتدمر كل ما تصيبه من هدف . وقد اثبتت التجارب ان الوقاية من هذه القنابل تقتضي طبقة تمتها ٨٠ قدماً من التراب او ١٢ قدماً من الاسمنت المسلح . ويفضلون في انكلترا طبقتين تمتكون من الاسمنت المسلح بينهما طبقة سميكة من التراب . وفي وسع قنبلة من هذا الصنف أن تدمر بناية ضخمة وتصدع المباني التي حواليها اما الآهلون فمن المتعذر عليهم ان يصنعوا شيئاً للوقاية من هذه القنابل ، الا اللجوء الى المخابىء العميقة التي تنشئها الحكومات ، او إلى الانفاق ، او الادوار الارضية من بعض المباني الضخمة العالية المبنية بالاسمنت المسلح

ومن حسن الحظ ان هذه القنابل الضخمة لا تحمل الا في قاذفات القنابل الكبيرة وهي على الغالب بطيئة الحركة بالقياس الى سرعة المطاردات علاوة على أنها أهداف سهلة لقنابل المدافع المضادة للطائرات لكبرها . وعلى ذلك فهناك فريق من الخبراء مثل كومودور الجو الانكليزي تشارلتن يذهب الى ان الحماية ضد قاذفات القنابل حماية تامة متعذرة ولو اجتمع ضدها المطاردات والمدافع المقاومة للطائرات والانوار الكشافة وسدُّ البلونات وذلك لانها تصبح خطراً من ساعة قيامها من مطارها لان ما فيها من المتفجرات خطر عظيم سواء أقذف منها قصداً أم أصيبت وهوت محطمة الى الارض

ثانياً — قنابل الغازات — والدليل على ما ينطوي في هذا النوع من القنابل من خطر الاستعدادات الواسعة النطاق لتجهيز الشعب كباراً وصغاراً بالاقنعة الواقية من الغازات

والتعليمات التي تصدرها مصالح الوقاية الخاصة بانشاء حجرة خاصة في كل بيت يستطيع اهله ان يلجأوا اليها الى أن تعلن الصفارة أن خطر الغارة قد انتهى ، وتمرين الشعب ورجال البوليس على مقتضيات حفظ الأمن في اثناء هذه الغارات وسنع الذعر وهو اعدى أعداء الشعب في مثل هذه الغارات

***

وكثيراً ما يتناقش الناس في احتمال وجود غاز جديد سري كشفته احدى الدول وأخفته الى اليوم للطير ، وليس هناك ما يمنع ان يكون ذلك كذلك ولكن ما عرف من دراسة الغازات التي تصلح للاستعمال في الحرب ، اقنع الباحثين ، بأن احتمال ذلك ضعيف جداً . ففي الحرب الكبرى درست ٣٠٠ مادة كيميائية تصلح من حيث خواصها الكيميائية للاستعمال في الحرب ، ولكن اكثرها لم يجتمع له الخواص والصفات العامة الاخرى (وقد اوجزناها في النبذة التالية) فلم يصطنعوا من الـ ٣٠٠ مادة بعد التجربة والامتحان الا ست مواد

ثالثاً — قابل الاحتراق ، وخطرها على الحياة قليل بالقياس الى خطرها على الاملاك فالقنابل المتفجرة الضخمة تدمر ما تصيب ولكنها غالية الثمن ثقيلة الوزن وقد لا تستعمل الا ضد الاهداف العسكرية الرئيسية . ولكن قنابل الاحتراق خفيفة الوزن صغيرة الحجم اشبه ما تكون بقنابل اليد ، وهي اذا ست جسماً صلباً ولدت حرارة تتفاوت بين ٢٣٠٠ درجة و ٢٧٠٠ درجة سنتغراد والمادة التي تولد هذه الحرارة العالية فيها هي مادة الثرميت فاذا لم تعد المعدات الواقية لمقاومتها وحصر تأثيرها حيث تقع ففي وسع الطائرة المغيرة ان تلقي مئات منها أو ألوفاً فتحدث حرائق صغيرة حيث تقع ولا تلبث حتى تتحول الى نار كبيرة مشبوبة يعجز رجال المطافىء عن السيطرة عليها تشل الادارة من ناحية وتحدث خسائر كبيرة مادية وفي الارواح من ناحية اخرى ، وخصوصاً اذا كانت الريح مساعدة على نشر النار بعد شبوبها

والقاعدة في الوقاية منها حصر تأثيرها وذلك بفرش السطوح بالرمل ، لانه اذا وقعت القنبلة وولدت الحرارة التي تقدم ذكرها ، واحيطت بالرمل منعت من ان تصيب اشياء قابلة للاحتراق فلا تلبث حتى تطفىء وينقضي شرها وخطرها

أهم الخواص
التي يجب أن تتصف بها المادة الكيميائية الحربية

١ — يجب أن تكون فعالة اذا وجدت بمقادير يسيرة منها منتشرة في مقادير كبيرة من الهواء . والمقصود أجزاء يسيرة من المادة الكيميائية في ملايين الاجزاء من الهواء . فاذا كانت المادة غير فعالة في هذه الحالة فهي لا تصلح للاستعمال في الحرب ، ويقول أحد

الثقات الكيميائيين ان غاز الفوسجين يكون فعالاً اذا وجد منهُ ٠٫٠٠٥ من الأوقية في ألف قدم مكعبة من الهواء . أي ان تكون نسبة الغاز الى الهواء كنسبة واحد الى ١٠٠ الف واذا كانت أقل من ذلك واستنشق المرء يستنشق ذلك الهواء بضع دقائق متوالية فقد يستنشق منهُ ما يكفيهِ للاصابة بتسمم مميت . وغاز الخردل فانهُ في مقادير صغيرة كذلك ، ويكفي ان يكون منهُ ٠٫٠٠٦ الى ٠٫٠٠٢ من الأوقية في الف قدم مكعبة من الهواء ليفعل فعله القاتل . والتفاوت سببهُ طول مدة التعرض للتسمم لاستنشاقه او قصرها

٢ — يجب ان تكون المادة الكيميائية الحربية مما تصعب الوقاية منها . اي يجب ان تخترق الأجهزة التي يستعملها العدو للوقاية منها . او اضاف عملها على الأقل . اي انهُ لا يكفي ان تحمل هذه المادة الجنود على لبس الاقنعة ، مهما يكن في لبسها من عرقلة لعمل الجندي بل يجب ان تؤثر في اجزاء الجسم المختلفة ، في الانسجة الرئتين والعينين والانف والجلد ، لأن تغطية الجسم كله من اخمص القدم والاطراف ليس بالامر السهل . وغاز الخردل يتصف بهذه الخاصة ، والوقاية منهُ تقتضي ان يرتدي الجندي رداء مصنوعاً من قماش لا يخترقهُ الغاز وهذا الرداء اذا غطى الجسم تغطية تامة أرهق الجندي وعرقل عمله وجعل القتال وهو مرتديه متعذراً عليهِ اكثر من بضع دقائق

واذا كان لا يؤثر في اعضاء كثيرة في الجسم فيجب ان يكون في وسعهِ اختراق الاقنعة ، اي يجب ان لا تمنعهُ المواد التي توضع في الاقنعة للتصفية . والكلور وهو اشد الغازات فتكاً لا يصلح من هذا القبيل لانهُ سهل الامتصاص . وقطعة من القماش المغموس في الصودا تكفي اذا وضعت على الانف لمنع وصوله الى الرئتين . ولكن هناك مركب منهُ يدعى «كلور بكرين» الوقاية منهُ صعبة جداً

٣ — يجب ان يكون صنعهُ سهلاً ، ونفقته غير مرهقة . وهذا لاسباب اقتصادية ولاسيما اذا عرفنا ان مقادير كبيرة من الغاز تبذل في الجو ، في هذا المحيط الهوائي المتسع ، حتى يتاح لقليل منها ان يفعل فعله . ومما يتصل بهذه الناحية منهُ ان صنعهُ يجب ان يكون متاحاً من مواد متوافرة في البلاد نفسها فلا ترهق باستيراد مواد اجنبية علاوة على ما تحتاج الى استيراده من المواد الاخرى اللازمة للصناعات الحربية والغذاء

ثم ان نقله يجب ان يكون سهلاً وغير محفوف بالخطر . وكل مادة يصعب حصرها في انابيب او اسطوانات ، او تأكل الاسطوانات بتفاعلها الكيميائي معها ، او قابلة للتفجر ينقص صلاحها للاستعمال الحربي . ثم يجب ان يكون مستقر التركيب اذ ما الفائدة من غاز تصنعهُ وتخزنهُ في اسطوانات ثم اذا انقضت عليهِ أيام او اسابيع تحلل الى مواد لا تضر ولا تؤذي

وأخيراً يجب ان يكون لا لون لهُ ولا رائحة ولا طعم . وليس هناك غاز يجمع هذه الخواص الثلاث ويفتك بالانسان الا غاز واحد

وهو أول اكسيد الكربون. ولكنهُ لا يتصف بالخواص الاخرى . وغاز الحردل يفوقهُ بوجه عام كما يفوق جميع المواد الكيميائية الحربية بوجه عام

جوائز نوبل العلمية

منحت جائزة نوبل الطبية (سنة ١٩٣٩) للدكتور جيرارد دوماك Domagk الالماني الذي أنقذ ألوفاً من براثن الموت باكتشافه مادة البرنتوزيل وهي صبغ أحمر غير سام عرف دوماك انهُ يقي الفيران من فعل الجراثيم الستربتوكوكية اذا تناولتهُ عن طريق الفم

صنع هذا الصبغ أولاً على يدي الباحثين الدكتور فرنز ميتش Mietzsch والدكتور جوزيف كلارير Klarer ومن المرجح ان عشرات من الكيميائيين والاطباء في شتى أنحاء العالم جربوا التجارب بمركبات كيميائية من قبيل البرونتوزيل سياً وراء مادة كيميائية تقتل الجراثيم وتقي الناس شرورها

ولكن بحث الدكتور دوماك في الفيران ورسالتهُ التي ضمنها نتائج بحوثهِ كانت الحافز الذي حفز علماء أميركا والمانيا وبريطانيا وفرنسا الى مواصلة البحث والتجريب، فأحلوا السلفانيلاميد والسلفابيريدين محلَّ البرونتوزيل فأحدثوا انقلاباً خطيراً في شأن في علاج الامراض بالمواد الكيميائية . وقد عرضنا لهذا الموضوع في المقتطف وكتابنا الجديد « آفاق العلم الحديث » (راجع صفحة ١٩٧ — ٢٠٥)

***

وقد منحت جائزة نوبل الطبية عن سنة ١٩٣٨ (وقد تأخر منحها) للاستاذ هيمانس Heymans أحد أساتذة جامعة جنت Ghent البلجيكية لكشفه أحد الاساليب التي تضبط التنفس وهو بحث فسيولوجي دقيق لا يتسع المجال هنا للتبسط في نواحيهِ الفنية

***

ومنحت جائزة نوبل الطبيعية عن سنة ١٩٣٩ للاستاذ لورنس أحد علماء معهد كاليفورنيا التكنولوجي جزاء لهُ على استنباط السيكلوترون (الجهاز الرحوي) فاستطاع ان يقذف به دقائق ذرية وذريرية على نوى الذرات بطاقة عظيمة فتحول العناصر غير المشعة الى عناصر مشعة . (راجع آفاق العلم الحديث صفحة ٨٩ — ٩٩)

اغلاق الجامعات الالمانية

تلقت مجلة « العلم » الاميركية من مكاتبيها في اوربا ان الحكومة الالمانية قررت اغلاق جميع جامعاتها ماعدا جامعات برلين وميونخ وبانا وفينا . واذا اخذنا بعدد الطلاب الذين كانوا يتلقون العلوم الطبية في جامعات المانيا في خلال سنة ١٩٣٧ — ١٩٣٨ علمنا أن ايصاد

ابواب الجامعات عدا الجامعات الاربع التي تقدم ذكرها سيوصد أبواب العلم العالي في وجوه ثلاثين الى خمسة وثلاثين الف طالب المانى غدوا مكرهين على الانصراف عن الطلب الجامعي . ففي ١٩٣٧ — ١٩٣٨ بلغ عدد الطلاب في جامعات المانيا ٤٧٤٧٠ طالباً منهم ٧٤٦٣ طالباً في جامعة برلين و ٤٩٣١ طالباً في جامعة ميونخ و ١٠٣٣ طالباً في جامعة يانا ومجموعهم ١٣٤٢٧ فاذا لم تتسع هذه الجامعات الثلاث لعدد من الطلاب اكبر من العدد الذي كان منتظماً فيها في السنة الماضية (١٩٣٧ — ١٩٣٨) فسيضطر الباقون الى التخلي عن طلب العلم الجامعي

وليس ثمة ريب في ان هذا سيحط من مستوى العلم والبحث العالي في المانيا في الجيل المقبل اذا لم يتدارك هذا النقص

خط الدفاع الاول ضد الزكام

يرى الطبيب الاميركي الدكتور كنت ليجر Lecare ان الغشاء المخاطي الرطب في داخل الانف هو خط دفاعنا الاول ضد الزكام . فاذا اصيبت الغدد التي تفرز هذا المخاط بما يعجزها عن الافراز مدى نصف ساعة تمكن فيروس الزكام من اختراق هذا الخط من خطوط الدفاع الى انسجة الجسم . فاذا احسست بجفاف في الغشاء المخاطي الذي يغطي باطن الانف والحلق فاعلم ان حصونك الاولى ضد مسببات الزكام قد استسلمت او بدأت تستسلم للعدو

لو لم يمت لينين ميتاً . . . !

قيل ان تروتسكي الزعيم الشيوعي المبعد — المقيم الآن بدار في مدينة المكسيك بلاد المكسيك — غافل حراسه في احد الايام وقصد الى جدول ليصطاد السمك رغبة في الرياضة . واذ كانت صنارته في الماء وهو على الضفة يعالجها طلع عليه فلاح صياد كذلك فتبادلا التحية واشتركا في حديث الصيد . ثم انتقل موضوع الحديث فالتفت الفلاح الى تروتسكي — وهو لا يعرف من هو — وقال أصحيح ان تروتسكي مات ؟ فقال تروتسكي لا إن تروتسكي لم يمت لانهُ لو مات لما كنت اصطاد هنا . فلم يلح الفلاح النكتة في العبارة فقال لعلني اخطأت القراءة او اخطأت التذكر ولعله ستالين هو الذي مات . فقال تروتسكي لا لا . ستالين لم يمت لانهُ لو مات ستالين لما كنت هنا اصطاد . فكانت هذه العبارة اشد غموضاً على صاحبنا الفلاح وكأنهُ ظن الرجل الذي امامه يواجههُ بالالغاز فقال له : طيب لينين حي . كيف تفسر ذلك ؟ فقال تروتسكي لا . لا . لينين مات لانهُ لو كان لينين حيًّا لكان حتماً يصطاد هنا . . !

جزائر آلند

جزائر آلند أرخبيل واقعة في خليج بوثنيا المتصل شمالاً من بحر بلطيق بين ساحلي فنلندة الى الشرق والسويد الى الغرب. والجزائر تبعد ٢٥ ميلاً عن ساحل السويد و١٥ ميلاً عن ساحل فنلندة. ومجموع مساحتها ٥٥١ ميلاً مربعاً وسكانها نحو ثلاثين ألفاً معظمهم من أصل سويدي

الجزائر تابعة لفنلندة ولكن لها نظام اداري خاص بها قاعدته الاستقلال الذاتي وهناك اتفاق على الامتناع عن تحصينها قضت به عصبة الامم وذلك عوداً الى تنفيذ اتفاق دولي سابق من هذا القبيل عقد سنة ١٨٥٦ وليس للجزائر قيمة اقتصادية . وانما تبنتها الاستراتيجية عظيمة. خلجانها الصخرية تتحكم بالمواصلات البحرية من الشمال الى الجنوب — وعن هذا الطريق تستورد المانيا جانباً كبيراً من وكز الحديد السويدي الممتاز — ثم أنها واقعة أمام مدخل خليج فنلندة

وفي نهاية هذا الخليج مدينة لنغراد الروسية وعلى ضفته الجنوبية قاعدة كرونستاد البحرية ويضاف الى كل هذا ان استيلاءها قاعدة جوية يهدد كثيراً من مناطق فنلندة والسويد الصناعية ولاسيما السويد ومن هنا حكم عصبة الأمم بعدم تحصينها ولا يعلم مايكون مصيرها الآن والحالة هي ما هي بين روسيا وفنلندة

نظام القردة : قرد ينصرف كانسان مهذب

جرّب حديثاً الدكتور مينيرا Menerat الجرّاح البيطري الذائع الصيت في مدينة باريس تجربة مفيدة جداً في علم النفس الحيواني ، وهي انهُ أحضر معهُ منذ عشر سنوات ، عند أوبته الى وطنه من سياحة علمية قام بها في مجاهل أفريقية ، قرداً من نوع الشمبنزي ، عمره سنتان ، كان قد صاده في احد الادغال

وما استقرَّ به المقام في داره ، حتى بذل هو وزوجه وولداهما ، أقصى جهودهم في حسن معاملة ذلك القرد الصغير وتهذيبه ، حتى جعلوه ينسى وحشيته ثم أطلقوا عليه اسم فاطو Fatou

فكانوا يعاملونهُ كأنهُ بشر ، مجتهدين تدريبه تدريباً خارقاً لعادة أيًّا كان نوعه ، ولم يكتفوا بجعله يسلك سلوك انسان ، بل جعلوهُ على تكييف نفسه رويداً رويداً ، تكيفاً يتفق والاوساط الراقية . وقد أدب حديثاً الدكتور مينيرا مأدبة في داره ، دعا اليها نخبة من العلماء ومندوبي الصحف ، حيث عرض عليهم « فاطو » عرضاً عامًّا اول مرة . فدخل ذلك القرد المهذَّب حجرة المائدة ماشياً على قدميه الخلفيتين ، منتصب القامة ، فأغلق بابها خلفه ، ثم دنا من ضيوف سيده وصافحهم واحداً فواحداً غير وجل ولا مضطرب . ثم جلس في مؤخرة المائدة وشرع في تناول الطعام أسوة بالمدعوين جميعاً ، بكل اعتدال دون ادنى زلل

وكان الغذاء حساء ولحماً وبطاطس وحلوى وفواكه ، فسلك القرد سلوكاً يدل على كبح النفس الى أقصى حدّ ، فكان يتناول

في دوره الصحون من جاره، ويغرف منها قسطاً من الطعام، ثم يناولها لمن يليه من الجلوس مباشرة. ولم يؤخذ عليه من ساوكه في الاكل، إلا تناوله من الفواكه والخضراوات اكثر مما ناله كل ضيف

وأمسك فاطو كأس الخمر بيده بكل اناقة ورشف ما فيها رشفاً رقيقاً. وما أخذ نصيبه من الحلوى والفواكه، حتى انتصب واقفاً على غرة من الحضور، وقصد الى سيدته، مدام ميتيرا، فربت على كتفها. وفاه بكلمة « ماما » يا ماما، بصوت واضح. ثم قصد الى قارورة خمر أبيض من منتجات بردو، وهو مشروبه المحبوب فشربها

وعندما قدمت القهوة الى الضيوف، طلب الدكتور ميتيرا السجائر، فأسرع فاطو الى خزانته فأخرج منها علبة من السيجار ورزمة من السيجارات، وقدمها الى ضيوف سيده، واحداً فواحداً ولم ينس ان يتقدم الى كل منهم أيضاً بالقداحة، ليشعل بها سيجاره او سيجارته. ثم تناول هو كذلك سيجارة وجلس على أريكة وثيرة بقاعة الجلوس حيث جعل يدخن السيجارة، متلذذاً بالتدخين. وما فرغ منها حتى اخذ عقبها في النفضة بكل حذر

وكان فاطو رقيقاً مرتدياً قميصاً قصيراً وسروالاً خفيفاً وحذاء من الخيش. ولفاطو حجرة خاصة محتوية على مائدة وكرسي هزاز وسرير ومشجب وحوض للاستحمام. ويفتح فاطو الحنفية لتصب له الماء الذي يحتاج اليه ويقيس درجة حرارة الماء. ثم يستحم ويجفف جسمه ويرتدي ثيابه كأنه انسان. وقد اتيح له ان يطوف بأرجاء دار سيده كيف شاء. وهو يفعل ذلك دون احداث اي تلف في اثاثها. ولكنه لا يدخل مخزن المؤونة بغير استئذان. ولا يعتقل في حجرته الا في ساعات اشتغال سيده الطبيب بعلاج الحيوانات، وذلك خشية خوفها منه

وعند انتهاء التأديبة، بسط الدكتور ميتيرا تجربته فقال، ان تدريب فاطو ليس على غرار تدريب القرود التي تعرض في ملاعب الحيوانات (السرك) بل ان كل ما يستطيع الشيمبنزي فعله قد تعلمه فاطو، من تلقاء نفسه. وان عائلة الطبيب ميتيرا لم تتعب قط في تعليم ذلك القرد اذ هو يسلك ذلك السلوك كشيء معتاد لا على سبيل التمثيل. وان الطريقة التي اتبعت في تهذيبه، لم تختلف عنها في تهذيب الطفل البشري

وقد تعلم كيفية فتح الابواب والادراج، وفتح مفاتيح المصابيح الكهربائية وأسلوب استعمال الشوك والسكاكين، بذكائه الفطري. وأما كلامه فلا يزيد على لفظ واحد وهو « ماما » الذي اقتبسه من ولدي سيده عن طريق التقليد. ويرى الدكتور ميتيرا ان تلك الكلمة الفريدة، أساس اللغات البشرية جميعها وانها تكاد توجد في لغات العالم أجمع. وهي أسهل لفظ يتاح للقرد التلفظ به إذ هو يتولد بذاته عند فتح الشفتين فتحاً مقروناً بالصوت مرتين متعاقبتين

عوض جندي

مكتبة المقتطف

مع ابي العلاء في سجنه

تأليف الدكتور طه حسين بك — صفحاته ٢٤٥ — طبع بمطبعة المعارف بمصر

أتاحت لي مطالعة هذا الكتاب النفيس لمؤلفه الاديب العظيم الدكتور طه حسين ، نهزة من نهزات الفن الرفيع والأدب العالي ، فلما تسنح لنفسي في وسط ما يحيط بها اليوم من شواغل الحياة واحداث العالم المضطرب ، وأني لأجد علاقة وثيقة بين هذه الشواغل والاحداث ، وبين موضوع الكتاب نفسه ، بل بينها وبين الفلسفة العلائية إطلاقاً وفاذ نظرتها في السياسة والاجتماع ، فلا يذهب بنا الفكر قريباً او بعيداً في مشكلات انفسنا وقيما يصطرع حولنا في العالم الذي نعيش فيه من مذاهب الاجتماع او السياسة ، حتى نذكر أبا العلاء ونذكر قوله : —

كلابٌ تعاوت او تعاوت لحيفة وأحسبني أضحيت ألأمها كلبا

فهذا الشاعر الضرير ، الذي فرضت القدرة على بصره سجن الظلام وفرضت روحانيته على نفسه سجن الدار ، وفرضت الحياة على روحه سجن الجسم ، هذا الشاعر المسكين ، المتفرد بأشد ألوان الألم ، وأقسى ضروب الحرمان ، لم تستطع سجونه الثلاثة هذه ان تحصله عن الحياة ، ولا ان تلقي حجاباً بينه وبين حقائقها ولا ان تعطل تفكيره بالعالم الذي يحيط به ، ولا ان تسلم احساسه بحركات الزمن ، الى الغفوة والاضطراب

فلو انهُ كان المبصر المؤانس ، المندمج في الحياة أشد الاندماج ، المختلط بالناس اكثر الاختلاط ، المبتعرق في دنياه بكل جوارحه ، لو انهُ كان هذا الرجل حقاً ، لما كان غير أبي العلاء نفسه الذي نقف منهُ اليوم ونعرفهُ باستقامة تفكيره وسلامة منطقه ونفاذ النظرة وصواب الحسبة ، ولما غير هذا الافتراض من آرائه حكماً ولا زاد عليها رأياً ولما ظفرنا بأوضح من هذه الصور الرائعة التي رسمها عقله ، فأطلعنا بها على طبائع الناس وغرائزهم ، وأظهرنا بها على أخفى سرائرهم ، وأدق ميولهم ، وسيتجدد الليل والنهار دائماً دون ان نجد في يوم خلاف ما خاطب به هذا القطيع الخالد من البشر بقوله : —

يرجي الناسُ ان يقوم امامٌ ناطقٌ في الكتيبة الخرساء
كذب الظن لا امام سوى العقـــل مشيراً في صبحه والمساء
فاذا ما أطعتهُ جلب الرحمـــة عند الميسر والارساء
انما هذه المذاهب أسبا بٌ لجذب الدنيا الى الرؤساء

لما كان هناك شاعر يقول كعروة الصعاليك : —

وإني لآتي إلهي ان أرى أسيرُ وحبلي ليس فيه بعير
وان أسأل الجيش الثيم بعيره وبحران ربي في البلاد كثير

ولما ارتفعت منهُ هذه الصيحة الكبراء : —

ذريني للغنى أسعى فاني رأيتُ الناسَ شرهمُ الفقيرُ
وأبعدهم وأهونهم عليهم وإن أمسى له حسبٌ وخيرُ
ويُقصيه النديُّ وتزدريه حليلتُه وينهره الصغيرُ
وتلقى ذا الغنى وله جلالٌ يكاد فؤادُ صاحبه يطيرُ
قليلٌ ذنبه والذنب جمٌّ ولكن للغنى ربٌّ غفورُ

وبعد ، فأني لأدعو مخلصاً الى الاحتفال بهذا الكتاب الثمين ، الذي أشعر ان نفس المؤلف تتكلم في كل حرف منهُ وأن روحه القوية المشرقة تندفع في كل عباراته ، ذلك أنها منبثقة من ينابيع عميقة ثرة ، مطلة من آفاق سحيقة رحبة ، هذه الينابيع العميقة والآفاق السحيقة ، لم تكن إلاَّ لأديب فذّ مطلع محب لأبي العلاء متجاوب معهُ انفرد دون أدباء جيله بالاحتفال بهذا الشاعر منذ سنوات بعيدة

ولقد يبدو الدكتور طه حسين متطرفاً في بعض آرائه وأحكامه ذلك أنه رجل ثورة ، ورائد من روّاد الحركات الفكرية التي يدعو اليها تطور الحياة في الامم ، ولكنهُ لا يبدو في هذا الكتاب إلاَّ منصفاً شديد الانصاف ، قرأ أبا العلاء لأنهُ أحبَّه وقدَّره وكتب عنه لأنه أعجب به وآثره ، أحبه لأن الأدب العربي لم يجد مثال الصدق إلاَّ في أدبه ، ولم يرفع منار الاستقلال في الرأي إلاَّ به ، وآثره لأن عظمة هذا الشاعر لم تكن إلاَّ دعة وتواضعاً ولم تكن فلسفتهُ سبيلاً الى نيل الشهرة ، وإصابة المنفعة ، ولكنها كانت حقائق مستمدة من الحياة التي زاولها وزهد فيها ، ومستمدة أيضاً من نفس الشاعر وذات تجاربه ولأنها مبنية على أصول من المنطق والمعرفة ، ولأن الشاعر قد جعل حياتهُ مثلاً على نحو هذه الفلسفة ودليلاً على إصالتها ، وبرهاناً على صدقها

ولو أني قلت ان هذا الكتاب من أعظم ماظهر في انتاجنا الادبي هذا العام ، لما تعديت القول انهُ من أعظم المؤلفات الحديثة ، ان لم يكن أرفعها مثالاً وأنبلها غاية ، وأوسعها تخيّلاً واستقراء لشخصية شاعر من أعظم شعراء العربية وأكبر فلاسفتها ، ولم يكن لها غير الدكتور طه حسين ليقدم ويهيب ويستخرج هذه النتائج منها

علي محمود طه

قواعد العربية الفصحى

٥١١ من القطع الكبير — باريس ١٩٣٧ (ظهر في ١٩٣٩)

Grammaire de l'Arabe classique, par Gaudefroy Demombynes et R. Blachère Librairie Orientale et Américaine, G. P. Maisonneuve, Paris.

صاحبا هذا الكتاب من اساتذة المدرسة الوطنية للغات الشرقية في باريس : احدهما اسمه جودفروا دومامين وعليه كان بعض تأدبي في السربون — حفظه الله، والآخر اسمه بلاشير وهو مؤلف كتاب نفيس في ابي الطيب المتنبي قد سبق لي ان عرضته على قراء هذا الباب من المقتطف

ان للفرنجة طائفة من المصنفات في قواعد العربية . ورأس هذه المصنفات كتاب دي ساسي De Sacy ، واليه رجع من عرض لذلك الفن وكتب فيه . ولكن علم اللغة خرج من حال الى حال في مختم المائة التاسعة عشرة بفضل اجتهاد اهل اللسان بعد ان نشروا اطراف البحث على فصائل اللغات المختلفة من هندية — اوربية وسامية . فألف العالم الالماني سوسين Socin كتاباً في القواعد العربية اجراه على منهج علم اللغة الحديث ، وأعاد بروكلمن طبع الكتاب . وهذان مستشرقان من مستشرقي فرنسة يخرجان القواعد العربية بلغتها مستظهرين بأصول علم اللسان ، مع زيادة في شرح المسائل وعناية بالترتيب والتفصيل مما يقرب منال احكام العربية لطلابها . والقواعد على قسميها المشهورين : الصرف والنحو . ففي الصرف قدم المستشرقان النطق بالحرف على رسمه ، وفي النحو وقفا عند عرض المسائل من طريق الاستشهاد بالفصيح وعدّا الفصيح من المائة الاولى للهجرة حتى آخر المائة الرابعة . فاستشهدا فيما استشهدا به بالقرآن والحديث الصحيح وكتب الجاحظ وابن قتيبة والأمالي للقالي ، ثم انهُ بدا لهما ان يستشهدا بعد ذلك بمقدمة ابن خلدون على سبيل الاستئناء . هذا وانهما استعانا بما الفه المستشرقون من قبل في ذلك الفن ، فأثبتا ذلك في درج المصادر

وهذا الكتاب جليل الفائدة حسن الترتيب واضح المسلك طويل النفس . على اني اصبت فيه ما لا بدَّ من الاشارة اليه ، وان كان ما اصبته حقير الشأن . واليك بعضه :

١ — في رسم الشواهد — في صفحة ٥٨ : شكى ، والوجه : شكا — بنت حصنة . . . ، والوجه : بِنت — هذا وهل لي ان أسأل المؤلفين لم لا يستعملان علامة الاستفهام في العربية اذا ما استعملاها في الفرنسية لنص المترجم ؟ (ص ٣١٢ — ٣١٣). ان علامات الترقيم للميسرة

٢ — في ترجمة الشواهد — ص ٢٤٨ : النص العربي : « قد خلقنا فوقكم سبع طرائق » (القرآن ص ٢٣ آ ١٧) فجاء في النص الفرنسي : « عليكم » بدلا من فوقكم sur vous ولعل الوجه au-dessus de vous — ص ٢٧٤ : النص العربي : « أراني أعصر خمراً »

(القرآن ص١٢ آ ٣٦). فجاء في النص الفرنسي: «أراني أدوس خمراً (أي عنباً لا صنع منه خمراً)» I see me (in songe) en train de fouler (du raisin pour faire) du vin.

والوجه: on traite de grosser du vin (du raisin) : والخمر هنا العنب وسمي العنب خمراً باعتبار ما يؤول اليه، على ما هو مشهور

— ص ٣٣٠ : النص العربي : بالامس — وجاءت الترجمة : « أمس » hier . ولعل الوجه (naguère ou jadis) أي فيما مضى

— ص ٣٦٤ النص العربي : « هو كبير جداً » — fort gros . ولعل الوجه fort grand او نحو ذلك

٣ — في احكام القواعد — ص ٢٧٣ : لم يفرق المؤلفان بين « ودّ أن » و « ودّ لو » فان التعبير الاول يفيد : أحب أنّ ، على حين أن في التعبير الثاني معنى التمني (راجع لسان العرب ج ٤ ص ٤٦٨ س ٤ و ١٢ و ١٤).

— ص ٢٧٣ أيضاً : أهمل المؤلفان وزود «قاف» بالباء

— ص ٢٧٣ أيضاً : قال المؤلفان إنّ كاد إذا سبقها نفي فهي انما تدل على المقدرة والقوة. والصواب أن كاد اذا سبقها نفي دلت على نفي مقاربة (كما في المفصّل للزمخشري مصر ١٣٢٣ ص ٢٧١) أو على الفعل بعد إبطاء (كما في رواية صاحب المصباح المنير) مادة ك أ د عن الازهري)

ويعدُ فالكتاب فوق أن يسيء مثل هذه المآخذ وهو حقيق بأن ينتضيه به الطالب ويتأنس العالم

بشر فارس

الشعراء اليهود العرب

٢٢٧ صفحة من القطع الكبير : مطبعة صلاح الدين بالاسكندرية

للاستاذ مراد فرج شاعر الاسرائيلية العربي في العصر الحديث ولمّ باللغة وبحوثها والتعمق في فقهها، ولهذا الولع اثر بارز في شعره الرصين، وهذا نتيجة اشتغاله بمعجمه الكبير « ملتقى اللغتين العربية والعبرية » الذي اصدر منهُ ثلاثة مجلدات ضخمة آخرها في العام الماضي وهو قائم الآن بطبع المجلد الرابع منهُ علاوة على مؤلفاته العديدة التي تبلغ ثلاثة وعشرين مؤلفاً في اللغة والادب والقانون والدين. كما اصدر من شعره اربع مجموعات

وقد أخرج في العام الماضي امثال سليمان منظومة شعراً ومشروحة ومفسرة وقد تصدى في ذلك التوفيق بين النص العبري للامثال وما يقابله في اللغة العربية فاجتهد ان تكون الكلمة هي هي في اللغتين او من عين المادة بقدر الاستطاع وبقدر ما تسمح به النظم

ثم قام في هذا العام باخراج الطبعة الثانية من كتابه « شعراء اليهود العرب » بعد أن أضاف

اليها ديوان ابن سهل الاندلسي وتولى شرح كل لفظة شرحاً وافياً ، وقد ناقش في اثناء الكلام عن السموأل القصيدة التي سبق ان نشرت في مجلة المشرق وقيل انها لهذا الشاعر والي شكّ المقتطف (١٩٠٦ ص٤٠٤) ومرجليوث في مجلة الجمعية الملكية الاسيوية(١٩٠٩ ص ٣٦٣) في نسبتها الى السموأل فجاري هذا الرأي مؤيداً ذلك بكثير من البراهين

والكتاب مصدر بمقدمة للدكتور اسماعيل احمد ادهم عرض فيها الصلات التي قامت بين العرب واليهود وهجرتهم الى الحجاز وتكاثرهم فيه على اثر قيام الثورة الكبرى ضد طبقة الحكام من الرومان وقيام هؤلاء بقمع تلك الثورة ، وانتهى منهُ الى الكلام عن شرح المؤلف لشعر السموأل فقال انهُ « شرح شعر الرجل شرحاً لغوياً دقيقاً يتضافر فيه العلم الواسع بمفردات اللغة والذوق الشعري والادراك لأسرار النظم العربي مما لا يترك مجالاً لباحث آخر في هذا الباب على أن شعر السموأل غير مطروق في هذا الكتاب من الناحية الفنية من حيث يدل هذا الشعر على اصل ثابت في نفس الرجل وقريحة ذات نمط خاص ، ووجدان يفيض بصور الشعر وذلك لان مؤلفه عالم لغوي يغلبهُ روح التحليل اللفظي والتدقيق في شكل القصيدة مما يجعله يصرف النظر عن استقراء الروح الشعرية القائمة وراء الجسم المادي للقصيدة . واذا كانت كل قصيدة شعر تختفي وراء جسمها المنظور حالة نفسية غير منظورة فوظيفة النقد العليا هي الكشف عن هذه الحالة النفسية والنزول بها الى الاصل الثابت من نفسية الشاعر »

وهذا الكتاب ولو انهُ اقتصر على الشرح اللغوي فهو مجهود مشكور على الوجدة الظاهرة فيه وهو أساس بعد ذلك للدارسين والباحثين

المصري

نداء المجهول — لمحمود تيمور

منشورات دار المكشوف ببيروت ١٩٣٩

هي قصة جديدة للاستاذ محمود بك تيمور نشرتها له دار مجلة المكشوف في بيروت رغبةً في تمكين الصلة الادبية التي بين القطرين الشقيقين . والقصة مما لم يسبق للاستاذ تيمور ان يخص على منوالها نسجاً منوالاً في كتاب تام قائم برأسه . وبيان ذلك ان الاستاذ تيمور عدل في هذه القصة عن الطريقة الواقعية التي اشتهر بها عدولاً وراح تستهويه الطريقة التخيلية Romanesque على حدّ ترجمة صديقنا الدكتور بشر فارس . فقد كتب صديقنا في مقتطف يوليو الماضي كلمة في قصة تيمور السابقة وهي « فرعون الصغير » تدلّ على نهضة هذه الطريقة الاخيرة عند تيمور . ثم كتب في مجلة « الرسالة » (٦/١١/١٩٣٩ رقم ٣٣٠) بحثاً طريفاً في « نداء المجهول » فصل فيه اللون التخيلي وميزه من اللون الرمزي :

قال : « وانون التخيّلي يجري الى سرد الحوادث النوادر و «المغامرات» (كما تقول اليوم في مصر aventures) والى وصف العوالم التي تهت العقل والى الكشف عن آفاق تضطرب فيها الأسرار والألغاز فكل ذلك رغبة في الفرار مما نعرفه ونلمسه ونؤمن به ، كل ذلك إرادة أن تلبّي النفس نداء يأتيها من وراء حجب. هذا وبين التخيلية والرمزية المستحدثة وشائج من جهة ذلك الفرار من العالم المألوف لنا . غير أن هذه تتثبت بما يجول في النفس خفية فتبرزه عزمات وتصوّرات وانفعالات ، ثم تستخرج ما وراء الحس وتدون ما يهجم على القلب ويرد على الوهم وذلك من طريق التمثيل ، وانتزاع الصور من الأشكال والهيئات ، واستنباط المطابقات والمقابلات والاضافات مما يجري مجرى الموازنة البعيدة أو القريبة بين الحيّ والجامد . وجملة القول أن التخيلية تتناول الخارجيات من بلدان نائية وغرائب مستملحة وحوادث اتفاقية ، على حين ان الرمزية المستحدثة تركز ارتيادها في وادي المضمرات والسوانح وما يلي المادة المباشرة »

والقصة تجري حوادثها في لبنان ، في قرية من قراها المطمئنة ، وأبطالها مصري (وهو المؤلف) وانجليزية وفتى من اللبنانيين . وهي قائمة على فكرة تلحق بعلم النفس مجملها ان النفس الرقيقة لا بدّ لها ان تضحي وان تلبي دعوة بعيدة خفية . وحوادث القصة من محض الخيال ولكن من غير إسراف ولا إغراب ، ولغتها سليمة بسيطة لا تكلف فيها ولا توثب

وبالجملة ان قصة الاستاذ تيمور حقيقة بأن يطالعها من يرتاح الى دقائق الفن ويود ان يقرّ لحظة من هذا العالم ليطير في آفاق البطالة والغرابة

مصر الغد

تأليف محمود كامل الخالي — صاحب مجلة الجامعة — صفحاته ١٣٠ قطع صغير

هذا الكتاب الصغير الحجم الكبير القدر يحتوي على نواة برنامج للاصلاح الاجتماعي والسياسي في مصر المستقلة . وضعه مؤلفهُ على لسان الشاب المصري المثقف . فهو دراسات اجتماعية سياسية في قواعد برنامج للاصلاح العام في عهد مصر الجديد الذي بدأ منذ توقيع معاهدة الصداقة والتحالف بين مصر وبريطانيا

في الكتاب نقد شديد لشتى الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في مصر . والنقد قائم على تحقيق دقيق للاحصاءات الرسمية . واتصال وثيق بأعمال الحكومة . ولكنه لا يقف عند حدّ النقد بل يتعداهُ الى اقتراح طرق عملية للاصلاح قد لا يوافقهُ عليها كلُّ قارىء ولكن لها ميزة الوضوح والجسم على الاقل وهي في رأيه محور وسائل الاصلاح التي تدور في ذهن الشاب المصري

هنا بحث في حالة الثقافة في مصر وأسبابها ، وصلتها بالاجرام . فانتشار الثقافة في مصر شيء سهل كل بحث لهُ متسع من الوقت للتنقيب كما نقّب الاستاذ محمود في جداول الاحصاء

وعنده ان هذه الحالة المزرية تجعل ملايين من المصريين « عبيد القرن العشرين » على حد قوله في احدى فقراته. وهنا بحث ايضاً في شركات الاحتكار وتحكمها وما يجب على الحكومة حيالها. والتعليم العالي في الجامعة يفوز بقدر غير يسير من عنايته ومن مساعيه انتخاب العمداء وما يحيط بها من رياح تجعل السيد مقيداً في القيام باعباء منصبه على الوجه الذي يرتضيه ضميره العلمي. ومنها عبادات الاطباء الاساتذة في كلية الطب ووجوب اقفالها

ومما يقترحهُ تعديل الدستور المصري وقانون الانتخاب تعديلات من شأنها ان تفسح المجال في الشركات الكبرى للشاب المصري وذلك بتحتيم جعل مكاتباتها التجارية باللغة العربية. وتعميم النظام النيابي بدم جديد وذلك باعفاء المرشحين حاملي الشهادات العليا من شرط التأمين المالي وأن يضاف الى عدد الاصوات التي يناها هؤلاء المرشحون ربع الاصوات الصحيحة

ومن الطبيعي ان لا يلقي المؤلف مقترحاته جزافاً بل هو يؤيدها بالحجة

والمهم في نظرنا الاهتمام بكل ما يكتب في موضوع الاصلاح الاجتماعي والسياسي، لأنَّ الكتَّاب هم الروَّاد الذين يهيِّئون الرأي العام ويرشدونهُ فاذا تكوَّن هذا الرأي العام ونضج فالاصلاح لا يتأخر بعد ذلك كثيراً

من أدب الفراعنة

بقلم محمد صابر — صفحاته ٣٢٦ من القطع المتوسط — طبع بمطبعة حليم بمصر

يسعى الاستاذ محمد صابر في جميع مؤلفاته لنشر المعارف والثقافة المصرية القديمة بين ابناء العربية فقد سبق له ان أخرج «صفحات من حياة الفراعنة ومصر تحت ظلال الفراعنة» واليوم يتحف العالم العربي والقصة المصرية بكتابه الجديد « من أدب الفراعنة » وهو يعد الاول من نوعه في اللغة العربية أوضح فيه مؤلفه الأديب منزلة الفراعنة في الادب وأدبهم العظيم وفضلهم على القصة والشعر والنثر

وفي هذا المؤلف عشر قصص مأخوذة من أوراق البردي وهي قصص مصرية بحتة مشوقة السياق تظهر لك عادات الفراعنة وأخلاقهم والاحتفالات في عهدهم وقد اعجبنا بقصة الاميرة الطائش وبأسلوبها ونأمل ان يوفق المؤلف في البحث عن بقية هذه القصة الممتعة مكتوبة في مدرج بردي آخر او منقوشة في احدى المقابر لنعرف الى اي حد وصل خيال المصري في نسج القصة وتصوير وقائعها. وفيه بعض الأغاني التي تعبر عن مشاعر الشباب والاغاني الشعبية التي تلقى في الحفلات مع عزف الموسيقى وتسمى « نشيد العازف » وبعض نماذج من الرسائل المتداولة في ذلك العهد والحكم والنصائح. والكتاب مطبوع طبعاً متقناً على ورق جيد ومزين بصور كثيرة وهو تحفة ادبية مختارة تشهد للمؤلف ببراعته ودقة بحثه وحسن اختياره

فهرس الجزء الخامس

من المجلد الخامس والتسعين

٥٠٥ اكتشاف السنة في تركيب الفقرة وحلها

٥١١ صلة الري بالصحة في المملكة المصرية : للدكتور محمد خليل عبد الخالق بك

٥٢٠ قلبي : (قصيدة) لحسن كامل الصيرفي

٥٢٢ عاطفة الحب ركيك تشأت : لأديب عباسي

٥٢٦ فكتور هوجو : قصة حبه الاول ورسائل غرامه

٥٣٢ اسرار الفنون في حياة النبات والحيوان

٥٣٨ خليل مطران شاعر العربية الابداعي : للدكتور اسماعيل احمد ادهم

٥٥١ قوام المشتري ومزحل : رأي جديد

٥٥٢ قرية نائمة (قصيدة) : لمحمد عبد الغني حسن

٥٥٣ الاغذية الكيميائية الحديثة : لعوض جندي

٥٦٢ ناحية المجون في الادب العربي : لسليم خياطه

٥٦٧ تأسيس شامبرا : بقلم الكنتس كرزون : ترجمة السيد محمد رجب

٥٧٧ سير الزمان * بريطانيا : فرنسا وحدة لا تنفصم عراها — روسيا والبلطيق من ايفان الرهيب الى ستالين — يوميات دولية : ١ — بولندا تموت لتحيا ٢ — الحرب لا تتجزأ ٣ — تعديل قانون الحياد الاميركي

٥٩٦ باب المراسلة والمناظرة * مفردات النبات : لمحمود مصطفى الدمياطي . حول رسائل الدكتور اسماعيل أدهم : لسيد اللطيف الفشار . حول مناظرة « جامعة عربية »

٦٠٠ باب الاخبار العلمية * انواع القنابل التي يستهدف الناس خطرها في الحرب . أهم الفواكه التي يجب ان تتصف بها : مادة الكيميائية الحربية . جوائز نوبل المالية : اغلاق الطاسات الالمانية . خط الاقلام الاول صنع الزكام . لو كان لين حياً . جزائر آلند . ذكاء الفردة : لعوض جندي

٦٠٧ مكتبة المقتطف * مع ابي العلاء في سجنه : لطه محمود طه . قواعد اللغة العربية : للدكتور عبد الله فريحة . الشعراء اليهود العرب : للصيرفي . نداء المجهول . معبر النهر . من أدب الفراعنة